

★

يعجبني في تعريف الحرية قول بعضهم : « الحرية هي ان لاتعمل ما لا تريد ان تعمله ». والفرق واضح بينه وبين ذلك التعريف المشهور المأثور وهو : « الحرية هي ان تعمل ما تريد .. الخ »

لقد محص اهل النظر هذا التعريف الاخير ، فثبت لديهم ان الحقيقة التي ينطوي عليها ضئيلة جداً وانها تزداد ضئولة على كرّ الازمنة وتطور الاحوال ، بغلبة الضرورات الاجتماعية القاهرة التي لا مفرّ منها والتي يتسع نطاقها تدريجاً الى ان تستغرق كل شيء ، فلا يبقى من ذلك التعريف الا اثر بعد عين ، متى تمت « غيبوبة » الفرد في المجموع ، والى الدولة المصير .

هذا التعريف المأثور : « الحرية هي ان تعمل ما تريد .. » كثير الدعوى ، يكاد لا يفي بجزء مما يعد . اما التعريف الاخر : « الحرية هي ان لا تعمل ما لا تريد ... » فهو اكثر تواضعاً . ومن يدري ؟ فلعل اعجابي به ناشيء عن ولوعي الشديد بلا (النافية) في أغلب الشؤون ..

★

من هو ذلك العبقري الذي سبق أنداده الى تعليم البشرية ان الكسل رذيلة لا ينبغي لهم ان يتخلقوا بها ، فالتاريخ لم ينقل الينا اسمه ، كما اغفل اسماء كثير من المخترعين الذين تقدموه (أي التاريخ) .

وأرجح ان ذلك « المعلم » الاول لم يكن « عاملا » يكدح ليله ونهاره ، وراء كفاف عيشه او لقمة يتبلغ بها ، فليس لامثال هذا المسكين ، من فراغ البال وطمأنينة النفس وراحة الجسد ، ما يتيح لهم « اختراع » الفضائل والدعوة اليها والتطوع لنشرها . يبدو لنا ان ذلك المعلم العبقري كان على الضد ، من ذوي النفوذ والسلطان ، الذين وُجدوا منذ وُجدت الجماعات الانسانية ، وفيها الاقوياء والضعفاء ، او اصحاب الامر والنهي في جانب ، واصحاب « السمع والطاعة » في الجانب الآخر .

كان السادة في العصور الهمجية يسوقون الارقاء الى العمل لأجلهم ، ضرباً بالسياط . ثم ترقى المجتمع الانساني ولم يعد للسوط موضع ، فاخترعت الفضائل الانسانية ، وكأنها سياط من نوع جديد ، لكن للغاية نفسها . وقد اثبت هذا الاختراع الاخير انه اعظم براعة ، وأشد نكاية ، من السياط الاولى ، لجمعه بين الدنيا والآخرة ..

★

يزعم احد كتاب القرن الثامن عشر الفرنسيس ان « الكسل هو الفلسفة .. » واظن ان هذا ما عناه احد اقاربنا الشيوخ ، حين قال عني ، منذ كنت صبياً : « عمر فيلسوف .. » قالها وعلى ثغره ابتسامة اشفاق وددت ، لجدع انف الفلسفة ، لو انساها! .

عمر فاخوري

الطريقة الشامية الحديثة

بقلم عبدالله العلايلي

مثلما اتسع القدماء من النقاد لتفصيل الطريقة الشامية في مميزاتها الخاصة وطوابعها الفذة، يحسن بنا اليوم في الحديث ان ننحو بدرسها هذا النحو، فنتسع لتفصيلها كما اتسعوا ونفرغ الى بيان ما امتازت به كما فرغوا، ولعلنا نحسن صنعاً الى الادب والى الناس ايضاً، حينما نحدد ونضع بين ايديهم هذا المجرى الادبي ماثلاً في ظاهراته المتنوعة.

وهذا اخذ لا يداخلنا في ضرورته شيء من شك او ريب، ففرق كبير بين ان يتناول الناقد أدبياً من أي أفق ويعرضه بالدرس والتحليل، دون اعتبار لسابقات وجوده التي تفاعلت فيه على نحو وبرزت لديه على نحو وقدمت منه شخصيته الادبية في أشيائها انفعالاتها. وبين ان يتناوله من شعبته او مدرسته ويعنى بتفهمه والحديث عنه في حدودها، وتحديد مدى نشاطه كشخصية أدبية فيما انفردت به وسجلته لنفسها. فالشخصية ليست شيئاً من ارتجال الطبيعة، بل هي وليدة عوامل كثيرة ومجموع عناصر متفاوتة من الطبيعة والحياة وعمل الانسان على كل من الطبيعة والحياة، فالوجود مطلقاً سيا الحي منه في مسراه اللانهائي أثبت انه سلسلة كلية من الاتصالات في سلسلة جزئية من الانفصالات.

وأي باحث يخالجه أي ريب بأن تصنيف الاحياء في مجاميع، مكّن من درسها والكشف عن لغزها الحيوي ودل فيها على ظاهرة التطور الفاعلة. كذلك نظن ان تصنيف الحياة الانفعالية التي هي اكثر تعقداً في مثل تلك المجاميع، قمين بأن يمكن من درسها على الحقيقة والكشف عن لغزها الشديد الغموض...

والآن نجوز سراعاً طائفة كبرى من القرون والاحقاب تقع بين عهد الثعالبي وهذا العهد الحديث دون ان نعنى بتأريخ الطريقة الشامية في ذلك الفراغ القائم بينهما، الذي عبر عن فراغ مثله في الحياة المعنوية من كل اقطارها ونواحي نشاطها، وذلك لنحصر النظر بمميزاتها في هذا العهد الذي تمادى فشكل نهضة بعيدة نواحي التأثير.

لم أكد أعزم على الاخذ بدرس الطريقة الشامية الحديثة، ولم أكد أمضي طويلاً في خطة الموضوع. ولم أكد أتناول طائفة من آثارها الادبية، حتى وجدتني أحس بمواقع نزعة خاصة، وحينما مضيت في تمحيصها والتعرف اليها جيداً وجدتني تارة اخرى أمام نفسية هامة خطيرة وروحية كبيرة نواحي الامتداد والالهام كبيرة جوانب الخلق والابتكار. وفي اعتبارنا ان التعرف على مناحي هذه النفسية الخاصة بالشاميين والتي هي اكثر ظهوراً في اللبنانيين واكثر عملاً، يقود حتماً الى الوقوف على حقيقة المثل الاعلى الادبي فيها، وهذا بالتالي يهدف بنا الى الوقوف على كنه الذائقة الادبية وبتعبير آخر الذوق الادبي في اتجاه منهجها، ونحن حفظاً لتسلسل الموضوع نعرض اولا لبيان النفسية الخاصة بالشاميين في خطوطها الرئيسية الكبرى.

بعد درس كما يتطلب الدرس من تحليل ومقارنة الى استقراء في حد ما واستنتاج في نصيب أوفر، انتهيت الى ان النفسية الخاصة بالشاميين تجتمع عناصرها في أنها:

أ — اكثر حنيناً الى المجهول واكثر استلهاماً له واستيحاء منه، فشاعت فيها نزعة صوفية حادة الاثر. وهذه النزعة الصوفية فيها ذات أثر ثابت كما يظهر، فذا هو التاريخ يحدثنا بأن لبنان كان موطن العباد والنساك وفيه تحلقت مدارس صوفية عديدة والتمعت بين آفاقه اشراقات كانت بعد ذلك اساساً لمدارس كبرى تكوّنت في غير مكانه، كما عدّنا التاريخ ايضاً بطائفة غير يسيرة من أديمهم المائج بآثار هذه النزعة، وأعمق من عبّر عن هذا الحنين في الحديث (جبران).

والحنين الى المجهول تزايدت كميته في هذه النفسية المذكورة، الى حد بدا اكثر وضوحاً واكثر احساساً به من الطبيعة اللاصقة بنا، فانتزعت الى الاغراق في تمثيل اشياء الطبيعة والحياة بأشياء المجهول والروح. وفي ظننا ان هذا الحنين هو الحادي بكثير من ادباء الطريقة الشامية الى سلوك الرمزية والرمزية المفرطة واتخاذها مذهباً ادبياً في لبنان. ومثل هذا الانتزاع التمثيلي في نظرية الادب يشبه طريقة العقليين في نظرية المعرفة، بل لعل الرمزية هبطت الى محيط

الادب والفن بالاستيحاء من الطريقة العقلية في أقرب التقدير

٢ – أنها متفلسفة كثيرة التساؤل الى حد الحيرة التي أفضت أحياناً الى ان تكون حيرة مطلقة ، وذا هو التاريخ يمدنا بطائفة من مثل ابي العلاء المعري. وحيرة التفلسف هذه كثيراً ما مست في بعض امتداداتها منطقة الوجدان فبلبلت صفة الوعي فيه، ولذا كان الاقليم الشامي مسرحاً اول للتوالد الديني على مثل الانقسام الذاتي في كل دور، وهذا دون شك يعبر عن شبوب واستعـار في أوار اللهيب الاقدس، وأوفى من عبر عنه في الحديث ايليا ابو ماضي.

٣ – الرغبة الحادة بالانفلات والشهوة الجامحة الى الانطلاق ، فهي تنفر من الحدود والقيود وتزور من الاغلال، ولانها نفور من الحدود كرهت الواقع الجامد واعرضت عن الطبيعة المحدودة ومالت الى المطلق. وذاك النفور من التحديد وهذا الميل الى المطلق جعلها تشيح عن الوضوح في فن التعبير والتفكير الذي هو محض تحديد، والقى بها في الابهام الذي فيه ظاهرة من الاطلاق او يحمل الفكر على الاندماج في المطلق، خذ امثال فوزي المعلوف.

ولانها نفور من القيود جنحت الى الشك في القيم وتخطي المقاييس المتعارف على اصطلاحها في المعرفة، خذ أمثال نعيمة.

ولانها نفور من الاغلال تمشت فيها جذوات ثورة تتصل بالاجتماع والاخلاق والاوضاع، خذ شعراء الشباب امثال ابي ريشة وزخريا ورئيف الخوري وابي شبكة.

٤ – عمق الاحساس بكل انواع الحياة الانفعـالية والتعبير عنها تعبيراً دقيقاً، خذ الاخطل الصغير وبدوي الجبل والحوماني ..

ولعلي أقرب كثيراً من الصواب اذا انا قلت في حدود الادب بالمعنى الخاص طبعاً ، ان شيخ الشاعرين في الطريقة الشامية الحديثة هو الاخطل الصغير بما اجتمع له في ادبه من تركيب صحيح في المفردات والروابط الى أسلوب طافح بشتى انفعالات هذه النفسية وألوانها، كما ان شيخ الناثرين فيها ايضاً هو الاستاذ عمر فاخوري بما اجتمع له في ادبه من مثل ذلك لولا انهما مقلان فيما يمدان به من انتاج. وهنـا الاحظ ان النفسية او الروحية الشامية تشبه من ناحيتهـا هذه النفسية الروسية التي أحس بها مفكرو الغرب في مختتم القرن التاسع عشر قوية جياشة تشق طريقها في الشعور الانساني المنطلق، فاستهاموا بها وعنوا بفهمها واقتفاء أثرها. والنفسية الروسية وان تركزت في مثل فكرية وحيوية واجتماعية راحت تنادي بها، وان تكن هذه المثل شيئاً لم يتهيأ مثله للنفسية الشامية حتى اليوم ، فانها تشبهها ثم لا تبعد عنها كثيراً. واذا كان لم يتفق للنفسية الشامية ان تتركز الى اليوم فلانها حديثة العهد بالتفتق ، بيد ان فيها العنـاصر الكاملة التي اذا قدر لها ان تختمر في تعاليم ونظم من ورائها فلسفتها الخاصة، فسوف لا يقل اثرها أهمية عن أثر النفسية الروسية في حقل الخير الانساني العام. ولعل من الخير ان نأتي بلمحة مجملة عن النفسية الروسية الممثلة في ابطالها مثل دستويفسكي و كورانكو وتولستوي لندرك ما بينهما من صلة قريبة. هي أولع ما تكون باستكشاف قوانين الحياة ودرسها حرة من كل مصطلح او عرف، في حمى الشباب ونشوته وبطولته ورغبة التجديد الحارة المضطرمة في دمائه. ولا تستند في معـالجة شؤون الحاضر والمستقبل على ميراث من ثقافات الماضي، بل تدع خصائص فكرها الشارد تتمدد في أغوار الكون وتنتشر ، فهي تريد ان تحل لغز الكون بنفسها لتعاود بناء الحياة كاملة مرة اخرى.

انها تخاطب المجهول في جرأة ساذجة، وتقبل على الحياة كما لو كانت تطالعها للمرة الاولى نافضة عنها غبار التقاليد مشرفة عليها من الناحية الانسانية المطلقة حيث تخلص الغريزة من النفاق الاجتماعي، ويتبين المرء مدى قواه في تبديل الحياة وتكييفهـا . وهي على جنونها بالحرية تعتلج بعوامل صوفية شتى تلمس بها الله في تأمل فلسفي عميق، لتشعر نفسها بالجزء الالهي الكامن فيها. ونحن بتأمل بسيط يمكننا ان نضع بين النفسيتين خطاً الى جملة خطوط تجعلنا نطمئن الى ما تقدمنا به من وجود مشابهة قريبة.

والآن نعود الى بيان المثل الاعلى للطريقة الشامية الحديثة : عرفنا من عناصر النفسية الشامية انه يشيع فيها الحنين الملهم الى المطلق والمجهول ، فكان فيها نصيب اوفى من النزعة الصوفية ، فهي تتحسس بالمجهول فوق تحسسها او حسها بالواقع فتعلقت بالرمز، وهي الى ذلك متفلسفة كثيرة التساؤل في نوع من القلق المشوب بالاطمئنان اخيراً الى اللا ادراك وهي ايضاً راغبة بالانطلاق فلا تعوقها الحدود ميلاً الى التجنيح. وكان لهذه النزعة الراغبة بالانفلات اثر بارز في الاسلوب مال به الى جهة الانبهـام ، الذي أحست به انه السبيل للتخصيب الروحي والتلقيح الانسيابي لشعور الحب الصوفي والحنين الكوني .

وعليه فالمثل الاعلى الادبي للطريقة الشامية ، هو ما جاء معبراً عن هذه النفسية في طائفة عناصرهـا ، خذ رمل وزبد لجبران ، وذكرى ثامن آذار للاخطل ولست ادري والشاعر لايليا ابي ماضي واحبك في القنوط لامين نخله ، ومرثاة فيصل للقروي ، ومصرع الشمس لبدوي الجبل ومقطعات غير يسيرة للحوماني وشاعر الطبيعة لابي ريشة ونشيد الام للاسير .

كتاب الاخلاق والسير لابن حزم

بقلم رئيف خوري

❦

في التراث العربي اسماء كثيرة ، نسمع بها المرة بعد المرة، ويتركز لها في صدورنا احترام عميق ، ولكننا لا نعرف عنها الا النزر اليسير . وليس مرجع ذلك دائماً الى قصور المصادر ، فان للكسل ايضاً اثره المنكر .

ولا اخال ان مثقفاً عربياً لم يسمع باسم ابن حزم الظاهري، ولم يعلم انه ينسلك في عداد الفلاسفة . وربما اتسعت دائرة معارف هذا المثقف ، فادرك ان فيلسوفنا ولد في قرطبة ، بالاندلس ، سنة ٣٨٤ هـ ، وتوفي سنة ٤٥٦ ، وكان عظيم الذكاء ، عظيم الاقبال على العلم ، غزير التآليف ، سمي الظاهري لانه يأخذ بنص الوحي ولا يذهب المذاهب في تأويل البواطن ، قاسى فنون الاضطهاد ، وثبت لها حرصاً على استقلال الرأي وكرامة الفكر . وكان شديد اللهجة عنيفاً في مقارعة الخصوم ، وقد يعزى ذلك الى عناده وغضبه في سبيل عقيدته ، وقد يعزى الى ربو اصابه في الطحال ، فأحدث له ضجراً وحرجاً وضيقاً .

قال شيئاً من الشعر ، احسنه هذه الابيات في مخاطبة المعتضد بن عباد الذي احرق كتبه باشبيلية :

فان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي   تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي   وينزل ان انزل ويدفن في قبري
دعوني من احراق رق وكاغد   وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

اما اشهر مؤلفاته فكتاب «الفصل بين اهل الاهواء والنحل» ولعل هذا اقصى ما تحيط به دائرة معارف المثقف العربي العادي ، حين يجري ذكر ابن حزم الظاهري الاندلسي .

وما اقصد في هذه العجالة ان اسطر بحثاً طويلاً في ابن حزم ، فالمصادر ليست متوفرة لدي . ولكني سأصنع شيئاً اظنه اجدى وانفع للقارىء العادي .

منذ ايام ساقتني قدماي ، الى بائع جوال من باعة الكتب ، بسط بضاعته في شارع مطروق من شوارع المدينة ، واستند الى احد الجدران . ولما كان يستحيل علي ان امر بطائفة معروضة من الكتب ، دون ان اغتذي منها ولو بنظرة ، فقد وقفت اتفحصها بعيني ، واذا بي ارى سفراً طالما تمنيته ، هو سفر ابن حزم : « الاخلاق والسير في مداواة النفوس » ، فاشتريته من غير مساومة اكراماً للمؤلف ، وطالعته ، فاحتفظت منه بهذه الخلاصة

اما الذائقة الادبية او الذوق الادبي في اتجاه هذه النفسية وامتدادها ، فانه يقوم على مقاييس تستوي وتجتمع فيما اعان على تحريكها واهاجة انفعالاتها ، وساعدها على الانطلاق الى اجواء اكثر انسجاماً مع طبيعتها ، مفرغاً في اسلوب شديد العدوى والنقل لجرثومة الانفعال ، ويزيد الاسلوب قيمة كلما كانت العدوى به وبائية أي سريعاً شاملاً اذا صح هذا التعبير واستقام لأداء الغرض المقصود .

وبعد فان بودي ان اثبت هنا ملاحظة هامة جديرة بالتأمل ، وهي ان النفسية الشامية رغم تفجرها من ينبوع يقرب من ينبوع النفسية الروسية ، عجزت عن ان تعطي قصة صادقة التعبير عنها وكانت محاولاتها جهداً فاشلاً ومشوهاً ايضاً . ففي الادب الشامي الحديث قصص ، ولكنه قصص مصنوع مدخول ليس مشتقاً من صميمها وجوهرها ، وهي عاجزة فيما اظن ابداً عن القصة ، لانها أي القصة واقع قلما تجنح ، بينما النفسية الشامية مجنحة قلما تتصل بالواقع ، والطبيعة المتمردة في اللاتحديد لا تدنو من طبيعة الوقائع المتدفقة في سيلها الحيوي العريض أي لا تستقيم الا في حد ما للتعبير عنها .

عبد الله العلايلي

الرائعة العميقة في الحكمة وملاحظة الحيـاة والبشر . وسيدرك القاري، فوراً ان ابن حزم كان الى فلسفته ، اديباً ، يجيد الصيغة ويتقن الصورة ، ولا يقتصر على مشاكل فلسفية منقطعة، ربما لم تعن الا القليلين .

« هدف الناس الاوحد »

تطلبت غرضاً يستوي الناس كلهم في استحسانه ، وفي طلبه ، فلم اجده الا واحداً وهو : طرد الهم . فلما تدبرته علمت ان الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط ، ولا في طلبه فقط ، ولكن رأيتهم على اختلاف اهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وارادتهم لا يتحركون حركة ، اصلاً ، الا فيما يرجون به طرد الهم . ولا ينطقون بكلمة اصلاً الا فيما يعانون به ازاحته .

طالب المال

وطالب المال لعين المـال ، لا لينفقه في الواجبات والنوافل المحمودة اسقط وارذل من ان يكون له في شيء من الحيوان شبه، ولكنه يشبه الغدران التي في الكهوف ، في المواضع الوعرة ، لا ينتفع بها شيء من الحيوان .

مدة الدنيا الان

اذا حققت مدة الدنيـا لم تجدها الا الآن ، الذي هو فصل الزمانين ، فقط . واما ما مضى وما لم يأت فمعدومان كما لم يكن .

الباخل بالعلم والباخل بالمال

الباخل بالعلم ألأم من الباخل بالمال ، لان الباخل بالمال اشفق من فناء ما بيده ، والباخل بالعلم بخل بمـا لا يفنى على النفقة ولا يفارقه مع البذل .

السعيد

السعيد ، كل السعيد ، في دنيـاه من لم يضطره الزمان الى اختبار الاخوان .

سياسة

الناس ... اجعلهم كالنار ، تدفأ بها ولا تخالطها .

المال اغلى من الارواح

وجدت المشاركين بارواحهم اكثر من المشاركين باموالهم .

تشبيه الدنيا

أشبه ما رأيت بالدنيا ، خيال الظل ، وهي تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة ، فتغيب طائفة وتبدو اخرى .

الفتنة عقيم

نوار الفتنة لا يعقد .

تعريف الحسن

الحسن هوشي، ليس له في اللغة اسم يعبر عنه . ولكنه محسوس في النفوس باتفـاق كل من رآه ، وهو برد مكسو على الوجه ، واشراق يستميل القلوب نحوه ، فتجتمع الآراء على استحسانه وان لم تكن هناك صفات جميلة . فكل من رآه راقه واستحسنه وقبله حتى اذا تأملت الصفات افراداً لم تر طائلاً ، وكأنه شيء في نفس المرئي يجده نفس الرائي . وهذا اجل مراتب الصباحة .

شرط الولاية

لا تتولّ الا على شرط العزل

الغيرة والمحبة

اذا ارتفعت الغيرة فايقن بارتفاع المحبة .

الناس والكلام

رأيت النـاس في كلامهم الذي هو فصل بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات ، ينقسمون اقساماً ثلاثة . احدها : من لا يبالي فيما انفق كلامه ، فيتكلم بكل ما سبق اليه لسانه غير محقق نصر حق ولا انكار باطل ، وهذا هو الاغلب في الناس . والثاني : ان يتكلم ناصراً لما وقع في نفسه انه حق، ودافعاً لما توهم انه باطل غير محقق لطلب الحقيقة لكن لجاجاً فيما التزم ؛ وهذا كثير ، وهو دون الاول . الثالث : واضع الكلام في موضعه ، وهذا اعز من الكبريت الاحمر .

رياضة الانفس

ان رياضة الانفس اصعب من رياضة الاسد ، لان الاسدَ اذا سجنت في البيوت التي تتخذ لها الملوك امن شرها، والنفس — وان سجنت — لم يؤمن شرها .

العاقل

العاقل هو من لا يفارق ما اوجبه تمييزه .

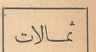
الاستهانة

الاستهانة نوع من انواع الخيانة .. الاستهانة بالمتاع دليل على الاستهانة برب المتاع .

المقلد

المقلد راض ان يغبن عقله .

رئيف خوري



ثمالات

◆ ◆ ◆

اسقيني من هذا الابريق المسحر يدفق بلبله الماء الطيب في الحنجرة لأرتوي ارتواءً .

*

لقد ظمئت من شرب هذه الاقداح الشفافة العارية ، احتسي منها الماء كأنه طعام غابّ في صحفة

٠٠٠ من جمح بي في شدة النهم الى غلة العطش حتى صرت في الشراب اعدّ على نفسي قطرات الماء واحدة واحدة كلما أشفّ شفافةً اغصّ بها غصة مديدة .

*

الابريق كفم الليل ، فيه دفقه وسره ، وسقسقته ، وخيطه الذي لا ينقطع الا بشفرة الضوء ، فاولئك الذين سكبوا الخمرة في اكواب من الزجاج اللماع لا عروة لها ولا بلبل ، هم الباعة الشحاح لا الحساة الماهرون .

*

وأطيب الصهباء ، صهباء في ابريق مورد من الخزف الاحمر يرتشف مع الشارب عبق الخمر ، وينش به نشيش الليل وتحمر خدوده الزهرية من حبات الثمال ثم يهفّ على الندامى هفيفاً رقيقاً .

حطمي هذه الاقداح البلور الجافة واتركي لي على المائدة الموحشة ابريق الخزف امصّ من بلبله الحياة مصاً طويلاً كما يمصّ العرق من الارض نضارة ، واخضراراً ومواهة وشذى .

إن الاباريق لم تصنع لتملأ بالامواه فهي في شكلها اشبه ما تكون بالعناقيد ، املئيها عصيراً وخمراً واتركيها في النافذة الشرقية بين مضارب السحر وبرودته وبالقرب من سريرك الحالم ومخدتك المطمئنة وحوض القرنفل المزهر .

سأمرّ بها غداً مبكراً وانت نائمة ، فامصّ منها مصة طويلة ثم أتركك في غفوك واسير استقبل الشمس بالراحتين .

حذاريك الصبايا فقد قالت الكبرى : ما اشد قحته يشرب وهي نائمة ، ولا يستأذن ، وقالت الصغرى : لو استيقظت لحطمت الابريق في وجهه على حديد النافذة ، أيمص منه مصاً ، ولم تصدق الثالثة انك حقاً كنت نائمة بل ظنتك يقظى تحيي معاً في البكرة ذكرى عبرت في يوم عزيز على مفرق العين بين شفة وشفة .

*

وانت حقاً ما كنت بنائمة فقد سمعتك تتمتمين باسم ظمآن شرب سراً وخطفاً من ابريقك المترع .

لو تنبهت ورأيت الصبايا ، وعين الشمس تتفتح من وراء الجبل لحطمت الابريق على وجهي وخرجت من بيتك هائمة في الارصفة تسألين السبيل الى مخابيء الضياء .

يا لشفتاك ، كم فيهما من اشياء خبيئة لا تباح وكم عليهما من عطر ودم . أوأنت المجرمة التي شربت الدم بالند والكافور .

عفوك ، ها فمي اشربي منه لعلّ بعد في ثنايا شفتيّ حباب قهوة .

اما فمك فهو النبع المخمر الذي تملأ منه الاباريق فمن تراه زرع فيه هذه الدوالي المسكرة ؟ ، هو كرم خصب من كروم لبنان العالية حيث ، الرواء والضياء والاعباق المقطفة ، والعناقيد الملوّحة في بحيرات الصباح .

والنفس الظمأى ، يا اخت ، ابريق عميق سحّرته في حافة نافذتها الشرقية حسناء هائمة ، تدفع النهار باناملها على مطالع الليل .

سأمدّ جناحيّ ، وانشر جفنيّ واجلس كالابريق المعطر في النافذة لعلك تمرين بي غب السمر فتكسّرين خزفي على قضبان الحديد ففي نفسي سر عميق لا يخرجه حتى العراء .

*

ما أطيب الشرب من الخزف المعتم . ان الاقداح الشفافة مقابر الشعراء .

الياس خليل زخريا

العبقرية والنجاح

اختلفت الفلاسفة وعلماء النفس في تعريف العبقرية فهذا يقول انها تسلط احدى قوى النفس على القوى النفسية الاخرى بحيث تجلس القوة المسيطرة على عرش تأمر فوقه وتنهى دون منازع ولا معارض وتصبح قطباً لدائرة اعمال الانسان فترغمه على السير في طريقها الى الهدف الذي ترومه بقوة الهوى الجنوني ، وذاك يقول انها الجمع بين النقيضين في الدماغ بحيث ترى المستحيل في دائرة الامكان كالخيال الناري مع المقدرة على حل ادقّ المشكلات الرياضية والهندسية وهما الماء والنار . وفريق يقول ان العبقرية بنت الوحي والالهام وفريق يحصرها في قوة الاختراع والتوليد وآخرون يرونها في تعدد المواهب . . . وعندنا ان سر العبقرية الحقيقي ما يزال مجهولاً كسر الكهرباء وغيره من اسرار الخليقة التي لم يقوَ الانسان بعد على كشف الستائر عنها على الرغم من اجتيازه المراحل الطويلة في مضامير الفلسفة والعلم .

والعبقرية نراها صخرة ناتئة تمتاز بشكلها ووجهها عن باقي الصخور واذا شئت فقل هي ما شذ عن القاعدة المألوفة وشذوذها هذا هو الذي يشق لها في الوجود طريقاً خاصاً يختلف عن الطريق الذي اعتاد الناس ان يروه مؤدياً بهم الى ما يدعونه النجاح فكم من عبقري أغدقت عليه السماء نعمها ورصعت نفسه بالحجارة الكريمة يعيش عمره ويموت دون ان تعرف الجماهير قيمته الحقيقية وتضعه في المحل الارفع الذي خلق له وكم من رجل عادي ضاق نطاق عقله وصغرت دائرة نفسه نراه يرقى درجات السلم الى حيث يتبوأ اعظم المناصب وينعم بقصور الثروة الوهاجة ويتقلب في احضان العز والمجد والرفاه تصفق له الشعوب وتخلده بتماثيلها في ساحات العواصم الكبرى .

وهو والحق مشهد يؤلم النفس ويدعو الى الدهش ويزيد في هذا الألم وهذا الدهش ان معظم الناس على صغر عقلهم وقصر مدى خيالهم وجهلهم الكثير من اسرار علم النفس يقيسون الذاتية بمقياس النجاح فهم يقولون لك : هذا عظيم لانه نجح وقل ان يقولوا هذا عظيم وان لم ينجح .

تلك ذهنية سقيمة تدل على ان الانسانية ما تزال بعيدة عن ذلك اليوم الاكبر الذي تنزع فيه الرداء العالي وتتحرر من قيود الوهم والجهل .

قلنا ان العبقرية خروج على القاعدة المعروفة وهي من اجل ذلك ترمي الى غير الاهداف التي يرمي اليها العاديون من البشر فالجماهير في ضعفها تعجز عن الارتفاع الى مستواها فهي في افق وتلك الاهداف في افق آخر . . . ألا ترى النسور كيف ان سموها قضى عليها بالعزلة والبعد عن تلك الاغصان الرطبة القريبة من الايدي والعيون ، التي ترقزق عليها العصافير ولكن هل يؤثر العصفور في تغريده وقربه منك على النسر في بعده وصمته وحومته في اعالي الاجواء ؟

العبقري غني بنفسه فهو لا يحتاج الى الثروات الارضية ولذلك قل ان تراه من هؤلاء الاغنياء اصحاب القصور .

والعبقري يضن بنفسه وبعبقريته ان ينحدر بها من سمائها الى عالم المكر والخداع والكذب والدسيسة ولذلك تراه مقيما في عالم عاجي خاص من افكاره وعواطفه يعيش وحيداً مترفعاً عن السخافات والخزعبلات والصغائر كأنه الجزيرة في قلب البحر .

والعبقري عظيم سواء أصفق له الناس ام لم يصفقوا ورفعوه الى مناصبهم أم لم يرفعوا . .

ويمكننا القول ان العبقري على الغالب عدو معاصريه وصديق القرون الآتية ، هو رجل المستقبل يجهله يومه ويعرفه غده . .

كم من عبقري هجره معاصروه ثم اقام له حفدتهم تمثالاً . . وحبذا لو كان كل قرن على مستوى عباقرته ولكن هذا لا يكون لان العبقرية ذهب في منجم الخالق والخالق يضن به فلا يهبه الا للمصطفين وهم لسوء الحظ قليلون ! . . .

راجي الراعي

الحياة الادبيـــة في دمشق

بقلم عبد الغني العطري

✯

يحق لي ايها القراء الكرام ان اتهيب الكلام عن الحيـاة الادبية في دمشق كل التهيب، لان المتكلم في مثل هذه الموضوعات لا بد له ان يتأثر بميوله ونزعاته مهما حاول (١) ، ولا ريب انه من أصعب الصعوبات على الكاتب ان يتحدث في مقام كهذا عن اناس تضمه واياهم مدينة واحدة ، ويجتمع اليهم في الطريق والقهوة والمكتب وفي كل مكان ، وتربطه بهم روابط صداقة ، او تبعده عنهم خصومة ماضية .

والحكم الذي يرضى عنه الكاتب ويعتقد انه الحق الذي يرتاح اليه ضميره ، ويطمئن اليه قلبه ، قلما يرضي الآخرين ، ولاسيما الأدباء الذين يدور الكلام عنهم بالنقد . ولكن كلمة الحق يجب ان تعلو ويجهر بها المرء مهما كلفته . وانا أعد قارئيّ الكرام ان اكون نزيهاً في حكمي ، معتدلاً في نقدي وثنائي ، متجرداً عن الصداقات والخصومات التي تربطني ببعض الادباء او تبعدني عنهم سأقول كلمة الحق لا لأتملق صديقاً او انال من خصم ، وانما لارضي صوت الضمير والواجب ، ما استطعت الى ذلك سبيلا .

●

يتنازع الادب والادباء الدمشقيين في هـذه الآونة تياران عنيفان ، يتصارعان أعنف صراع . الاول تيار المحافظة على القديم، ويمثله ادباء دمشق الشيوخ ، والآخر تيار التقدمية ، ويمثله فريق من الشباب الذين فهموا رسالة الادب على حقيقتها فراحوا يتذمرون من وضع الادب الحاضر ، وينقمون أشد النقمة على الادب القديم الذي لايمثل في نظرهم سوى ادب لا يتصل بالحياة الجديدة المعاصرة ولا يصور ما يضطرب فيها من فضيلة ورذيلة ولا يصور عادات من حولهم ولا يستمد من الواقع صورة ولا مشهداً .

ويتفرع من هذين التيارين تيار آخر لا استطيع ان اسميه بغير « التيار الحائر » . ويمثل هذا التيار الفئة التي تتجاذبها روعة الجديد ورونقه وسحره ، وجمال القديم والرغبة في المحافظة على « تراث الجدود » ودراسة الاقدمين وقراءتهم وحدهم .

أما انصار الادب القـديم ، فيمثلهم الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي وهو قلما يعنى بغير الامور التاريخية واللغوية ، وهو يوالي نشر مبـاحثه هذه في الصفحات الاولى من مجلة المجمع العلمي .

وينضوي تحت لواء الاستاذ كرد علي فريق كبير من اعضاء المجمع وفي طليعتهم الاستاذان عبد القادر المغربي ، وعبد القـادر المبارك . وقلما يلتفت هذان الفاضلان الى غير شؤون اللغة واصلاح « عثرات الافهام ، التي لا تفرق بين صوابه وخطأه الاقلام (٢) » .

ومن مدرسة الادب القديم ودعاته الاساتذة محمد البزم، خليل مردم بك، شفيق جبري، اديب التقي ، عز الدين التنوخي وغيرهم

ويمتاز الاستاذ البزم بشعر فخم ، قوي الالفاظ ، متين القافية، وهو اقرب الى ان يكون شعراً عربياً قديمـاً منه الى ان يكون شعراً طري الالفاظ ، ذا جرس موسيقي ناعم يستهوي القارىء .

واستمع ، اذا شئت الى الاستاذ البزم كيف يرد على من يعيب عليه شعره الفحل :

وكم في بني الآداب من لو خبرتهم ... وجدت قواريرا على المس تكسر

ورب يـد تجري اليراع بمهرق ... وساعدها والكف بالقطع أجدر

وهل عاب فحل الشعر الا مخنث ... دعي له طرف عن الحس أخزر

سامح الله الاستاذ البزم ، فقد اراد ناقدوه ان يكون شعره « شعراً » ولكنه يأبى الا ان يجعل منه نظماً .

ويمتاز الاستاذ خليل مردم بك بشعر رائع الوصف . دقيق التصوير . ولا يقل شعره في بعض الاحيان قيمة عن شعر كبار الوصافين العرب . ولا ريب انك ستهتز اعجاباً وطرباً اذا ما قرأته في قصائده الروائع « الرقص »، و « سكران وسكرى »،

---

(١) سبقني في الاشارة الى ذلك الدكتور محمد يحيى الهاشمي « الادب » – ايلول ١٩٤٣

(٢) عنوان محاضرة للاستاذ المغربي نشرتها مجلة المجمع في جزئيها الثالث والرابع من عامها الحالي .

و« الفراشتان »· على انه ينقص الاستاذ مردم بك في بعض الاحيان سعة الخيال ، وقوة القافية · وقد أصدر الاستاذ مردم بك سلسلة من الرسائل بعنوان « أئمة الادب » درس بها ابن المقفع ، والجاحظ والفرزدق وغيرهم دراسة ان لم تكن كافية وافية ، ولكنها تعطينا ولا شك آراء صائبة « محكمة » دقيقة في الادباء والشعراء الذين تناولهم الكاتب بالدرس ·

وما أحب بعدُ ان اتكلم عن انصار الادب القديم اكثر مما تكلمت ، ولكني احب ان اقول كلمة جريئة صريحة ، وهي ان انصار هذا الادب ضئيلو الحركة ، قليلو الانتاج · ويكفي للتدليل على ذلك ان نقول ان الاستاذ البزم لم ينظم بيتاً منذ سنوات اربع ، وان الاستاذ مردم بك لم ينشر قصيدة جديدة منذ ست سنوات · وما يقال عن هذين الفاضلين ، يقال عن زملائهما الباقين في نسب قد تزيد وتنقص ·

يلذ لي بعد الكلام عن جماعة الادب القديم · ان انتقل الى الكلام عن الادباء الشباب ، او الادباء التقدميين — كما يحبون ان يقال عنهم — لان الحديث عنهم ولاريب ألذ الى النفوس واشهى ··

تحمل رسالة الشباب في دمشق مجلة « الصباح » الادبية ، التي رأست تحريرها وادارتها طوال العامين الماضيين · وقد استطاعت في هذين العامين ان تسدد خطوات الادباء الشباب ، وان توجههم وتحثهم على الانتاج الغزير المثمر · واستطاعت في هذه المدة ايضاً ان تجلو الصدأ عن اقلام فيها كل الخير للادب ، وان تظهر نبوغاً وعبقريات ، ما كانت لتظهر لولاها · وهي بعد لم تحمل رسالة الادب الجديد في دمشق وحدها ، بل أعطت صورة واضحة عن الادب الحي في اكثر البلاد السورية والعربية ·

يحتاج الادباء الشباب في دمشق الى التآزر والتعاون والتعاضد · وفقدان التعاون بينهم يشل حر كتهم ويفقدها كل نشاطها وقوتها وحيويتها · فلو تكاتفت هذه الجهود واتحدت غايتها ، ورفع من بينها الحسد والضغينة لرأينا حالة الادب في دمشق تضاهي في نشاطها وقوتها ، حركة الادب في سائر البلاد العربية · ومن هنا ارى ان جهد الفرد في دمشق ، ينتج ويثمر اكثر من جهد الجماعة · واذكر لهذه المناسبة اني قرأت طرفة في احدى المجلات الفرنسية منذ سنوات تحدث الكاتب فيها عن الشخص والاثنين والجماعة وما يستطيعون عمله متحدين ومتفرقين في كافة بلاد العالم · فلما وصل به الحديث الى السوري قال ما معناه : ان الرجل السوري يستطيع بذكائه ودهائه ان يعمل كل شيء · وان رجلين مجتمعين يستطيعان ان يعملا بعض ما يعمله الفرد الواحد ، ولكن لا تستطيع ان تصنع شيئاً جماعة من السوريين مجتمعة ·

ولا ريب عندي ان هـذه النبذة تتضمن كثيراً من الحقيقة والواقع ، ولكنها لا تخلو من كثير من الخطأ والمبالغة ، ونظرة هذا الكاتب الى السوري ، تنطبق حيناً وتشذ حيناً آخر ·

والآن من هم ادباء الشباب في دمشق ? ومـا هي ثقافتهم وميزاتهم ? ان الحديث عنهم يحتاج الى وقت طويل ورجوع الى آثارهم ، وانا لا املك من آثارهم في الساعة التي كتب فيهـا هذا المقـال شيئاً ، واعتمد فيما اكتب على ما قرأته لهم فيما مضى · وقد قرأت كل شيء ·

ادباء الشباب يتفاوتون ثقافة واطلاعاً وقوة انتاج · ويعد في طليعتهم نسيب الاختيار · فهو يمتاز بثقافة شرقية وغربية شاملة ، واطلاع واسع على اكثر آداب الامم · وهو كاتب منتج حين يريد ، مقل حين يشاء · وللاستاذ الاختيار مباحث في الفن والشعر ترفعه الى الاوج ، ولكنه يسكت في كثير من الاحيان · وللاستاذ الاختيار ايضاً محاولات في الشعر ، ولكن كل ما نشره حتى اليوم لم يبرهن على انه شاعر

وخير من يعالج القصة في دمشق هو فؤاد الشائب دون منازع وللاستاذ الشائب في القصة وثبات تدل على انه فنان بارع متضلع من ثقافته القصصية واطلاعه على آثار الغرب في القصة · فازت قصته « ابن الارملة » بجائزة مجلة « الدهور » الاولى وذلك منذ سنوات بعيدة ، عندما كان فؤاد الشائب ناشئاً يحاول · ونشر الشائب عدداً كبيراً من القصص لعل من أروعها واقواها قصص « ملاك الموت » و« ربيع يتضور » و« ساعة الافطار » وهو يُعد الآن مجموعتين من القصص ، ستنشر الاولى في بيروت في وقت قريب ·

ويمتاز قصصه بدقة التصوير وعمق التحليل ، وهي تنزع الى الواقعية المحلية المستمدة من صميم الشعب والحياة ·

واذا انا اهملت الكلام عن الشائب صاحب المقالات المتفرقة الكثيرة فلأنني لا اقيم وزناً كبيراً لهذه المقالات امام قصصه ·

ومن الادباء المجددين الشباب ، الذين كنا نرجو منهم الخير كل الخير للادب الاستاذان صلاح الدين المحايري وميشيل عفلق ، ولكنهما سكتا في الاعوام الاخيرة ولجأا الى المطالعة ··· ويمتاز المحايري بمباحثه العلمية الفلسفية الدقيقة التي يتجلى بها اطلاعه الشامل

منشورات الاديب

◆

لا هوادة — تأليف الاستاذ عمر فاخوري ، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، وهو مجموعة مقالات في الادب والنقد والاجتماع والسياسة .
ثمنه ليرة لبنانية

اسبوع الثقافة في لبنان — بقلم نخبة من الكتّاب . نفد

دي غول الاديب — تأليف الاستاذ جان غولميه ، نقلته « الاديب » الى العربية بعد ان نفدت نسخه الفرنسية كلها ، يبحث المؤلف فيه الناحية الادبية في مؤلفات الجنرال دي غول زعيم فرنسا المحاربة . (نفد) .

الواحــة — مجموعة شعرية للاستاذ صلاح الاسير ، تمثل لونا جديداً من الوان الشعر الحديث .
ثمنه ثلاث ليرات لبنانية

★

مكتبة الاديب

◆

عمر بن ابي ربيعة — للاستاذ جبرائيل جبور استـاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية . صدر منـه حتى الآن جزءآن ، يدرس المؤلف في الجزء الاول حياة شاعر العاطفة والحب والجمال . وفي الجزء الثاني عصره والبيئات المتنوعة فيه ، ثمن الجزء الواحد ثلاث ليرات لبنانية ونصف .

على الفلسفة الانكليزية والفرنسية والالمانية . ويمتاز الاستاذ عفلق بقصصه التحليلية العميقة ، ومباحثه التي تتجلى بها براعته وثقافته بأجلى صورهما . والذي يبدو ان الاستاذ عفلق طلق الادب والقصة ثلاثاً ، واخذ يعمل الآن في ميـدان القومية والدعوة الى تنظيم الشباب .

وهناك عدد من الادباء الشباب لم يمض على مزاولتهم الادب سوى سنوات معدودات . ولكنهم برهنوا في هـذه المدة القريبة على كفاءة ونضج وفهم للأدب . وقد قدموا حتى الآن نتاجاً لعله خير نتاج يجب ان تفخر به دمشق ،بعد ادب فئة الشباب التي اشرت اليها قبل هذه السطور .

وفي مقدمة من أشرت اليهم الآن الاساتذة : ليان ديراني ، وجميل سلطان ، ونزيه الحكيم وبديع حقي وهشام دياب وصلاح الدين المنجد ويحيى الشهابي والشعراء : انور العطار وأمجد الطرابلسي وعبد المطلب الامين وعدنان مردم بك .

ويمتاز ليان ديراني بقصصه التي تغلب عليها النزعة الاشتراكية التي يستمدها من صميم الشعب ، ولنزيه الحكيم مكان مرموق بين هذه الفئة لانه من اكثرهم نضجاً وموهبة . ولكنه اصبح مقلًا ، ولعل عدوى استاذه عفلق قد سرت اليه ، فقد رأينا انه تصرم العام الماضي دون ان ينتج خلاله شيئاً جديداً .

ويعد الدكتور جميل سلطان في طليعة المنتجين شعراً ونثراً . وقد اخرج حتى الان عدداً من المؤلفات كان آخرهـا « فن القصة والمقامة » . ويتنازع الدكتور سلطان تياران : تيار القديم وتيار الجديد ، فهو تارة يدعو الى الجديد ،واخرى يتعصب للقديم وينتصر له . ولعله يعمل على التوفيق بين التيارين فيأخذ من القديم أحسنه ، ويطرفنا بأروع ما في الجديد .

ولبديع حقي على حداثة عهده مستقبـل باسم رائع . فازت قصته «ابتسامة» بجائزة مجلة الصباح الثالثة التي اقامتها في العام الماضي . وله محاولات موفقة في الشعر الذي ينزع به الى الرمزية . ومن قصائده الطريفة : « راقصة » و « عذراء » و « غمامة » و « الارق » .

ولهشام دياب مقالات تدل على اطلاعه على كثير مما نشر في الغرب . ويمتاز ببعض مقالاته الذاتية ودراساته الموجزة لدوستويفسكي واميل زولا وفرانسيس كاركو . ويؤخذ على هذا الكاتب ضعف أسلوبه وسطحيته في كثير مما يكتب .

ويعد صلاح الدين المنجد من الادباء المنتجين ، ويمتاز بلغة رقيقة

وألفاظ منمقة يحسن اختيارها ويتعب بانتقائها . وللمنجد اطلاع واسع على آثار العرب المخطوطة والمطبوعة . وله الى جانب ذلك اطلاع لا بأس به على آثار الغرب . وله ايضاً محاولات في القصة استمدها من الادب العربي، ولكنه لم ينجح بها حتى الآن .

وهناك عدد كريم من الادباء والشعراء يضيق بي المجال ان اردت التحدث عنهم جميعاً . لذا اكتفي بذكر بعضهم معتذراً الى الذين فاتني الحديث عنهم . وهؤلاء الادباء هم الاساتذة خلدون الكناني . وهو قليل الانتاج وقد اصدر مؤخراً رسالة قيمة درس بها (حسان بن ثابت) ، ومحمد المبارك ، واسعد طلس ، وابراهيم الكيلاني . وقد اصدر الاخيران كتاباً لتلاميذ البكالوريا سمياه « الادباء العشر ! » وهناك ايضاً علي الطنطاوي وزكي المحاسني والاول اديب كان غزير الانتاج ثم اصبح مقلا بعد ان دخل في سلك القضاء الشرعي . يمتاز الطنطاوي بمقالاته التي يتغزل فيها بوطنه ويمتدح جمال بلاده ويصور فيها عادات قومه . فهو من هذه الناحية الاديب الدمشقي الذي يصور بيئته ويتحدث كثيراً عن قومه . ولولا تعصبه ورجعيته لاصاب نجاحاً في عالم الادب غير الذي اصابه .

واما الاخر وأعني المحاسني فينظم وينثر ولكن ابا زكوان لم يوفق حتى الان في الشعر ، ويحتاج في النثر الى البساطة وعدم التفيهق كي يصبح ما يكتبه صالحاً للمطالعة .

اقف عند هذا الحد ، بعد ان طال بي الحديث عن الادب والادباء في دمشق لاتحدث بايجاز عن اديباتنا الدمشقيات معتذراً اليهن عن هذا التأخير . ولكن ما الحيلة . وقد احتل الادباء ببراعتهم وكثرتهم مكانهن .

تقوم الحياة الادبية النسائية في دمشق على سواعد اربع من نسائنا الاديبات . واذا انا لم اذكر غيرهن فلأن اللواتي لم اتحدث عنهن ينشرن في فترات متباعدات كل التباعد ، وفي صحف قليلة الانتشار !

اول من احب ان اخص بالحديث اديبة الفيحاء الكبيرة الانسة ماري عجمي . فهي عميدة الحركة الادبية النسوية في دمشق وهي الاديبة التي يجب ان تفخر باثارها دمشق . وقد كانت خلال الحرب الماضية تصدر مجلة ادبية ، تضاهي ارقى المجلات بحسن مادتها وجمال ترتيبها ، وبراعة اخراجها ، وكان اسمها (العروس) . وظلت العروس تصدر اعواماً طويلة الى ان قضت عليها ظروف بالاحتجاب فتركت باحتجابها فراغاً لا يزال ماثلاً حتى اليوم . والانسة ماري عجمي شاعرة مجيدة ، بل هي الشاعرة الدمشقية الوحيدة . وفي شعرها موسيقى عذبة الوقع والفاظ حلوة التأثير . ولا تخلو قصائدها من دقة الوصف وبراعة التصوير وسمو الخيال .

ويلي الانسة عجمي ، السيدة وداد سكاكيني ، وهي اديبة ذات مكانة مرموقة . تمتاز باسلوب قوي ولغة متينة ، تفوق لغة الادباء بقوتها وتماسك جملها . وقد فازت السيدة وداد بجائزة القصة التي اقامتها مجلة المكشوف عام ١٩٣٦ ولدى السيدة وداد الان مجموعة من القصص الرائعة ، استمدت موضوعاتها من صميم الواقع والحياة الدمشقية .

وقد اصدرت قبل زواجها من الاستاذ زكي المحاسني كتاباً سمته (الخطرات) لقي حظه من النجاح . ويؤخذ على السيدة وداد احياناً ما يؤخذ على زوجها دوماً من التكلف والتصنع ونظرة واحدة في مقالين مختلفين للزوج والزوجة تدلنا على الفارق العظيم بين الاثنين .

وثالثة الاديبات في دمشق . . . هي الانسة فلك طرزي صاحبة كتاب (ارائي ومشاعري) الذي نشرته منذ اعوام وتحدثت عنه الصحف طويلاً . وقد قدم له الاستاذ خليل مردم بك ، فلامه بعض الناقدين ، لانه لم يلفتها الى اغلاطها اللغوية وهفواتها . والذي يبدو من مقالات الانسة فلك الاخيرة ان اسلوبها قد استقام وثقافتها قد اتسعت . ويرجى للانسة فلك في الاعوام المقبلة تحسن ظاهر في ميدان الانتاج الفكري .

وهناك ايضاً الانسة مديحة البرازي ، هذه الاديبة التي تكره الظهور وتأبى الشهرة ، وهي لا تنشر آثارها على الغالب الا في الصحف اليومية السيارة ، وهذا خطأ فاضح . ولعلها لا تنشر ثمارها الا ارضاء لنزعة الكتابة في نفسها . تمتاز الانسة مديحة باسلوب أنيق ، ولغة صحيحة ، وتفكير متزن ، ويرجى لها نجاح اكبر اذا عمدت للاتصال بالاوساط الادبية عن كثب .

هذه خطوط اولى عن الحياة الادبية في دمشق رسمتها على عجل . ولي وطيد الامل بان تتيح لي الظروف عودة قريبة الى هذه الخطوط كي استطيع التبسط في الكلام عمن فاتني الكلام عنهم او اضطرني ضيق المقام الى الايجاز في الحديث عنهم .

وأعود فاكرر اني تجردت عن الصداقات والخصومات ما استطعت حين كتبت هذا المقال ، ولم اتوخ سوى الحقيقة ناصعة .

عبد الغني العطري — دمشق

اعمى

ظلام ظلام !　　　ودنيا تنام !
وليلٌ أبد ،　　　بعيد الأمد ،
كثيف الغيوم ،　　　بدون نجوم !

وكيف يكون الضياء ؟



وصفو السماء
والمساء ؟
وكيف تشعّ الزهور ؟
ويجري العبير
في الأثير ؟
وكيف يطل القمر ؟
ويصحو السحر
في الشجر ؟

سواء سواء　　　دجىً وضياء !
وكل الوجود ،　　　غمائم سود .
ودنيا تنام　　　بحضن الظلام .

غنطوس الرامي

لمحة في الادب التشيكوسلوفاكي

بقلم ف. أليس — ترجمة سهيل ادريس

*

ان بقاء الادب التشيكوسلوفاكي على الحياة خلال قرون زاخرة بالمكافحة والآلام والطغيان لحادث هام في الثقافة الاوروبية . وقد بدأ نتاج الادب التشيكي يظهر — بعد ان لم يكن ثمة ادب سلوفاكي منفصل ، اذ ان المؤلفين السلوفاك كانوا يحررون ايضاً بالتشيكي — في القرن الحادي عشر . وكانت المؤلفات الدينية والاخلاقية هي التي تَغْلبُ على الادب التشيكي حتى القرن الخامس عشر . واعظم ممثل لهذه الحقبة من الزمن هو « يان — يوس » (١٣٦٩ ـ ١٤١٥) المجدد الخالد ، ومؤسس علم الخط التشيكي الحديث . اما القرن السادس عشر ، قرن الادب التشيكي الذهبي ، فيمتاز بالمؤلفات النثرية ، والكتب التاريخية ، ورسائل الرحلات ، ولكنه يمتاز كذلك بترجمة لامعة للتوراة (توراة كراليكي) كنز للسان التشيكي الصافي خلال قرون فاجعة تالية .

وقد فقد التشيكيون عام ١٦٢١ استقلالهم واستهدفوا لاهوال دامية حكمت عليهم بها ملكية هابسبورغ الجرمانية ـ النمسوية . وكان ما اشبه ذلك الطغيان بالاستعباد النازي في المانيا . وفي تلك الاثناء برز في البلاد التشيكوسلوفاكية كاتب من اكبر كتابها الذين اصابوا حظاً عظيماً من الشهرة في العالم قاطبة وهو « يان اموس كومنسكي » (١٥٩٢ ـ ١٦٧٠) المعروف في الخارج باسم « كومان » او « كومنيس » . وقد سلخ هذا الكاتب ردحاً طويلاً من حياته في المنفى ، فاصبح فيلسوفاً عظيماً ، ومؤسساً لعلم التربية الحديثة ، وهو كثيراً ما يُدعى بنشيد الامم .

بيد ان الاهوال الهبسبرجية سببت انحطاطاً في الادب ، وحتى في اللغة التشيكية . ولم تبدأ النهضة الا بعد مضي زهاء مئة عام ، حوالي نهاية القرن الثامن عشر ، حين اضحت السياسة اكثر تحرراً واستقلالاً تحت تأثير الافكار الفرنسية والانكليزية الجديدة . حينذاك عاد التشيكوسلوفاكيون الى لغتهم يهذبونها ، والى نتاجهم الادبي يثقفونه وقد كانت هذه النهضة الثقافية بدء النهضة السياسية كذلك ، ولم يكن ثمة ادب وحياة معنوية قد أثرا على نضج السياسة وتوسعها في أية امة ، كما اثرا في الامة التشيكوسلوفاكية فبينما كانت الثقافة في الخارج نتاج السعادة السياسية غالباً ، كان هذان الامران يسيران جنباً الى جنب عند التشيكوسلوفاك ، وكثيراً ما كانت الحياة السياسية ، والنوازع الوطنية مبنية مباشرة على الحياة الفكرية ، والميول الاخلاقية والثقافية المتمخضة عن الادب . وان بداءة هذه النهضة الوطنية موسومة باسماء عدة علماء ، باسم « يوسف دوبروفسكي » (١٧٥٣ ـ ١٨٢٩) وباسم البحاثة اللغوي والمؤرخ الادبي « يوسف يونجمان (١٧٧٣ ـ ١٨٤٧) ، وباسم المؤرخ ب . ج . شفارجيك (١٧٩٥ ـ ١٨٦١) ولم يكن المؤرخ « فرنكشيك بالاتسكي » (١٧٩٨ ـ ١٨٧٦) عالماً مشهوراً فحسب ، ولكنه كان كذلك مؤسس السياسة التشيكية الحديثة . ويدعوه شعبه المعتز به « بأبي الوطن » . اما اشهر شاعر فكان « يان كولار » (١٧٨٣ ـ ١٨٥٢) سلوفاكي يحرر بالتشيكية ، صاحب قصيدة « بنسلافية رومانطيقية » وقد ألهمت قصيدة الشعب « فرانتشياك لاديسلاف تشالاكوفسكي » (١٧٩٩ ـ ١٨٥٢) وكاريل يارومير (١٨١١ ـ ١٨٧٠) . وقصائد « اربتن » تخلق شعوراً عصرياً تاماً ، ويمكن اعتبارها ام النتاج المدرسي في الادب التشيكي . وتُسامتُ هذه البرهة من الشعر التشيكي « كاريل هينك ماكا » (١٨١٠ ـ ١٨٣٦) مؤسس الشعر الغنائي ، وكاريل هافليتشاك بوروفسكي (١٨٢١ ـ ١٨٥٦) مؤسس الشعر الهجائي ، وفي الوقت نفسه اول صحافي تشيكي كبير قضى ضحية التعذيب الهبسبورجي . وفي اواسط القرن التاسع عشر ، كان الادب التشيكي قد اجتاز مرحلته البدائية . ولن نتتبع منذ ذلك الحين الا الادب السامي دون ان نتمكن من الايماء الى تطور الادب العلمي لجميع الفروع في هذه المحاولة العاجلة .

غير اننا ينبغي ان نشير على الاقل الى انبل اسم في الاسماء ، الى توماس كاريك مازاريك (١٨٥٠ ـ ١٩٣٧) فيلسوف عميق التفكير ، وهو من كبار اصحاب النظريات الديموقراطية في العالم اجمع ، الى كونه رئيساً سياسياً واخلاقياً لامته ، اثر في القرن التاسع عشر والعشرين اعظم الاثر في حياتها المعنوية والعامة ، وكان اخيراً الرئيس الاول ، الرئيس المحرر ، للدولة التشيكوسلوفاكية المجددة عن الجمهورية التشيكوسلوفاكية .

ولقد مكث الادب التشيكي ، نثره وشعره ، متصلاً اعظم الاتصال بحياة الشعب ، بحسّه الوطني ، وشعوره الاجتماعي وديمقراطيته العميقة . وكان اكثر رجال الامة الكبار ، والكتاب منهم خاصة ،



يان أموس كومنسكي ، الفيلسوف ومؤسس علم التربية الحديثة

•

قد نشأوا في اوساط اناس عاديين ، فلاحين وقرويين الخ . .
وكانت ميزة الادب تثبت انهم لم ينسوا قط اصلهم ،
ورواية « الأم الطيبة La Bonne Maman » لمؤلفتها الكاتبة
« بوجانا نيامتسوفا » (١٨٢٠ — ١٨٦٢) كانت اول كتاب عصري
نقل الى عدة لغات اجنبية ، واصاب شهرة عالمية . والرواية وصف
واقعي وخيالي في الوقت نفسه ، لحياة الفلاحين . واما أعمق كاتب
في هذه الحقبة فكان « يان نارودا » (١٨٣٤ — ١٨٩١) « لوهان »
التشك في الشعر ، و « ديكنزها » في النثر . وقد وجد الشعر
الاجتماعي ممثله الكبير الاول في شخص « سفاتوبلوك تشاك »
(١٨٤٦ — ١٩٠٨) وفي قصائده المؤثرة « اناشيد عبد » . وتنتهي
هذه الحقبة بالشاعر « ياروسلاف فراختسكي » (١٨٥٣ ــ ١٩١٢)
الذي كان مترجم دانت » و « ارسطو » و « تاسو » و « شيلي »
و « فيكتور هيغو » و « كاموئز » و « جوته » و « تيان » و « كلدارون »
و « ميكياوكز » وغيرهم ، مساهماً بذلك في توسيع اللغة الشعرية
التشيكية ، كما كان منتجاً عجيباً كثير الابداع في الكتابة .

ووالت الرواية التشيكية حوالى اواخر القرن التاسع عشر ،
واوائل العشرين ، وصف حياة الفلاحين والعمال والقرويين . وقد
مثل هذه الرواية الواقعية التي اصابت حظاً غير يسير من تأثير الكتاب
الفرنسيين والروس ، « كاريل ماتياي تشابك ــ كود » (١٨٦٠ ــ ١٩٢٧)
ولكن الرواية التاريخية التي مارسها كثيرون ، والذي كان ممثلها
الاول « الويس يراساك » (١٨٥١ ــ ١٩٣٠) ، ساهمت مساهمة
واسعة في القوة الاخلاقية لنضال الشعب التشكوسلوفاكي في سبيل
التحرر من النير الاجنبي . ونشير كذلك الى الرواية الغنائية ،
والشعر الرقيق للمؤلف الدقيق « فرانيا شرامك » (ولد ١٨٧٧)

ويعتبر هذا الاخير صلة الوصل الى احدث حقبة . وهذا هو
تاريخ المؤلفين الذين اشتركوا في نضال الشعب التشكوسلوفاكي
للتحرر الوطني ، ولتأسيس دولته المجددة . واليهم الفضل وعليهم
المعوّل في تفتح الادب التشكوسلوفاكي الباهر خلال زمن الجمهورية
التشكوسلوفاكية الحرة ، منذ عام ١٩١٨ .

ويمثل النثر والدرامة اول من يمثلها في هذه البرهة « كارل
تشابك » (ولد ١٨٩٠ ومات كمداً وحسرة بعد كارثة امته عام
١٩٣٨) الذي حاز في مؤلفاته الشعرية والفلسفية في الوقت نفسه
على صيت عالمي واسع . ولنشر على الاقل من ناثري هذا الزمن
الى اشهرهم : « ايفان اولبراخت » (ولد ١٨٨٢ ، ومات في معسكر
احتلال الماني) اكبر وصّافي القسم الشرقي الرائع من تشيكوسلوفاكيا
و « فلاديسلاف فانتشورا » (ولد ١٨٩١ واعدمه الالمان) ربّ
الرواية ، والشاب « آغون هوستوفسكي » (وهو يعيش الآن منفياً) .



فرنكيشك بلاتسكي مؤسس علم السياسة التشكية الحديثة

وليس من الحق قبل ان ننهي هذا الفصل في نثر السنوات الاخيرة ان نغفل ذكر النثر الهجائي الذي اعطى عن الادب التشيكي اكثر كتبه شعبية للخارج: كتاب « شفيك: الجندي الطيب» للكاتب « ياروسلاف هاشاك » (١٨٨٤ ـ ١٩٢٣)، هجائية ديموقراطية للعسكرية النمسوية الالمانية في الحرب العالمية الاولى .

ولم يكن اتساع الشعر اقل شأناً وروعة . ونذكر من شعراء اقدم الاجيال « اوتاكار برجازينا » (١٨٦٨ ـ ١٩١٩) شاعر في التصوف الديني ، ذو شهرة عالمية . اما الشاعر الغنائي الذي يذكرنا بـ « فيلّون » و« فرلين » من حيث الرقة والعذوبة فهو « كاريل تومان » (ولد ١٨٧٧) ويُعدّ من الجيل الاكثر فتوة بزاياه الادبية اكثر منه بالسن . وهذا الطابع نفسه يميز الشاعر الاجتماعي والثوري « ك نويمان » (ولد عام ١٨٧٥)

اما الشعر الذي نشر مباشرة بعد الحرب العالمية الاولى ، فيعبر أصدق التعبير عن مشاعر الامة الخالدة : عاطفة اخوة الرجال ومساواتهم . وكثيراً ما اعتُبر الشاعر الغنائي « يوسف هورا » (ولد ١٨٦١) اكبر شعراء التشك الاحياء ، بينما اصبح « يلجي وولكر » (١٩٠٠ ـ ١٩٢٤) الذي توفي في اينع سنه ، استاذ الشعر الانساني . ويمثل نوازع الشعر العصري الحديث ف . هالاس، وف نزفال (ولد ١٩٠٠)

وتبقى علينا الان ان نتحدث عن الادب السلوفاكي . والحق ان نتاجاً ادبياً سلوفاكياً قائماً بذاته لم يبدأ الا في اواسط القرن التاسع عشر ، حين سما البحاثة اللغوي والوطني « ليدافيت شتور » (١٨١٥ ـ ١٨٥٦) باللهجة السلوفاكية الى اللغة الادبية . وكان الشعب التشكوسلوفاكي في ذلك الحين يعيش تحت نير الحكم الهبسبورغي ، ولكن بينما كان فرع الشعب التشيكي يتألم من الطغيان الالماني في القسم النمسوي من الملكية الهبسبورجوازية ، كان فرعه السلوفاكي هدفاً لطغيان اشد قسوة وهولاً تحت ايدي الهنغاريين في القسم الهنغاري من امبراطورية الهبسبورغيين . وكانت هذه هي الاسباب التي فصلت بين اللغة الادبية والادب السلوفاكي، واليها كان يعزى كذلك ان اتساع هذا الادب الجديد لم يتم بالسرعة التي تمّ فيها الادب التشيكي .

كان اكبر شاعر يحرر بالسلوفاكية « هفياز دوسلاف » (١٨٤٩ – ١٩٢١) واكبر ناثر « مرتين كوكوتشين » (١٨٦٠ – ١٩٢٨) . وثمة شاعر وناثر ممتاز هو « مرتين رازوس » (١٨٨٨ – ١٩٣٦) الذي كان في الوقت نفسه احد رؤساء شعبه السياسيين .

ولم يُلمس تفتح ادب سلوفاكي صحيح الا في اوائل عهد الحياة الوطنية الحرة في الجمهورية التشكوسلوفاكية . ونذكر من مؤلفي هذا الحين من الزمن « يان سمراك » (ولد ١٨٩٨) شاعر غنائي رقيق ، و«ميلو اوربان» (ولد ١٩٠٤) وهو كاتب روائي سلوفاكي نقلت آثاره الى اللغات الاجنبية .

ولعل الزمن لا يسمح لنا بوصف اتساع الادب التشيكوسلوفاكي باكثر مما وصفناه به من خطوط مميزة ، ولا يسمح لنا كذلك الا بذكر اسماء اهمّ المؤلفين ولكن عسى ان تعطي هذه المحاولة القصيرة للقاري . فكرة عاجلة عن الجهد الادبي العظيم لأمة صغيرة بعدد افرادها ، ولكنها كبيرة بمعنوياتها وبذوقها الثقافي ، امة شيدت كل حياتها الاجتماعية والسياسية على قاعدة روحية من الانسانية والديمقراطية الصحيحتين .

وهذه بعض مقطوعات شعرية رمزية من الادب التشيكي الحديث

★

شباط

لكاريل تومان

(« كارل تومان » (ولد عام ١٨٧٧) شاعر ذو صبغة فردية . وتذكرنا الحانه الرقيقة المرهفة ، والحزينة اللائمة بمقطوعات «فيللون» و« فيرلين » وهو في احدث مؤلفاته يبسط اسلوباً امتن وابلغ ، ولكن دون ان يضحي بعذوبة مؤلفاته السابقة ورقتها .)

انت الذي يَكلَف بالسكون ، ويُغرى بالوحدة ؛
انت الذي يستمع في اعماق الغابات ، وفي سلام الحقول تحت الثلوج ،
الى نسق الحياة الراتب ،
ألا تسمع احياناً
صوتَ الوديان والهُوى ؟

بعيداً ... تصلّ مواكب الاموات والدم والسكرات
حيث سكون الارض عذابٌ وألم ...
اما هنا ، تحت ذلك ...
فقلبٌ تجفُ خفقاته ، ونبعٌ مكنون ، من اعماق الظلمات ،
يَعرُج نحو .. النور ...

و . . وانشودة المياه الفتيّة الغضة ،
تسكر فؤادك ، وتشمل عقلك بسعادة التفكير :
في اننا إن كنا صنوين في اليأس . . .
فلسنا كذلك في الايمان والوفاء .

★

الطريق

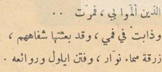
ليوسف هورا

(اكتسب «يوسف هورا» (ولد عام ١٨٩١) شهرته الادبية بعد الحرب العالمية الاولى . في الشعر التشيكي ، تلك كانت حقبة الرغبة الملحة بالاخوة والمساواة . ويوصف «يوسف هورا» بأنه اهم شاعر تشيكي معاصر .)

ان الطريق لتتحسّس وتتلمّس ، خاليةً بين دورها ،
ليس من قدم تمشي ، ولا من صوت يتمزق على الجدران ،
اذ يصطدم بزواياها الحادة القاسية . . .
. . . وليس ثمة مَنْ يُدميك . . .

بوجانا نيامتسوفا مؤلفة رواية « الأم الطيبة »

•



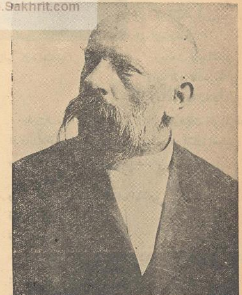
ومع ذلك ، فان خطوات واصواتاً لتنبعث من طوايا السكون
وانفاس دون اجسام ، نفحات اولئك . . .
الذين ألمّوا بي ، فمرّت . .
وذابتْ في فمي ، وقد بعثتها شفاههم ،
زرقة سماء نوّار ، وفتن ايلول وروائعه .

وخيالات وراء الزجاج تختلط بالسواد .

لقد ذهبوا دون ان يذهبوا ، و إن احداً منهم لم يبتعد .
وعلى شفاهنا استسلمت للنوم ضحكات الاطفال ،
وجوعُ العيون الاجنبية يُدرج بين أصدغنا
شبحَه الذي ينطفيء فينا كالمصباح . . .

وأيد على صدري ، ايد ما اكثرها ترسل شعاعاتها !
وعلى رأسي ازهارٌ كثيرة . . . ازهارٌ ما اكثرها !

★



ياروسلاف فرخلتسكي

انشودة المهاجرين

لجان سمراك

(لعل « جان سمراك » (ولد ١٨٩٨) معتبر أهم الشعراء السلوفاكيين المعاصرين . وتتسم اشعاره بكثير من الحيرة – ويحمل اول كتاب له – طبع عام ١٩٢٢ – هذا العنوان المميز : « محكوم عليه بالعطش الازلي » . وهو شاعر ذو قريحة غنائية وقادة ، وحس بالنغمة والنسق ، يثير الاعجاب .)

ما اكثرهم اولئك الذين يغربون ،
ليشقوا الاثلام في الامواج !
وإن أناشيدهم للهجرة،
لتصدي في الارجاء . . .

يشكو فريق منهم
الهم والنصب في تلك الفيافي
الموحشة
وآخرون على الافراس،
وغيرهم يمسكون الاعنة
وجميعهم يخضعون على
مضض ومشقة للسان الاجنبي
بينما اللسان الاومومي
الحبيب . . .
ينشد لهم في المساء على
ضوء مصباح صغير
موسيقاه الفرحة المرحة . . .

وعلى مثل هذه السفينة التي تشق « حمالايا » الامواج
دون ان تضطرب او تنوس ، كأنها منشار هائل
أبحرت قديماً ، اياماً وليالي . . .
وفهمت ساعتئذ تلك القوة الالهية
التي يقبض عليها الانسان بيده العجيبة .
وكنت واقفاً على حيزوم السفينة
حين لفحني الهواء
فوممني بطابعه القوي الشديد
لا تذكره بعد ،
غب الاوبة الى جبالي .

وانت . . . ايها القائد الذي يحشو المدخنة بالفحم
ان عاتقك لمن رصاص
وان ذراعك لمن حديد
حين يجهدا ويشتدا . . .
ولو اني كنت شاباً مثلك
لجمعت قوتي الى قوتك
لنحول مسير السفينة ! . . .

وما كان لي – انا الذي ليس في طوقه
ان يندمج في حركات تلك الآلات

الرئيس مازاريك مع الروائي الواقعي كاريل تشابك

الا ان اوجه وجهي
باستسلام
نحو فريق المهاجرين ،
الذين يبعثون فوق تلك
الامواج
التي تنزع بالشبه الى
حمام ابيض ،
بالحانهم الكئيبة اللائعة

اولئك هم الذين يسيرون
الى الامام قدماً .
ومنحت الزبدا جفاني . .
رامياً الزهرة البحرية للهواء
وداعاً اخيراً لبلاد آبائي .

. . ولوت السفينة مؤخرتها : مؤخرة الحوت، ودلفت نحو المرفأ .
اذ ذاك طفقت الامهات يرسمن على صدورهن اشارة الصليب ،
وأغضت الزوجات رؤوسهن وابصارهن .

وحين تحاملت سحابات الدخان الاخيرة
فوق الامواج المتلاطمة
قيل للبحارة : وداعاً ، وداعاً
. . واختلطت ألحان تلك الاناشيد الموسيقية الحنانة المشوقة
برعود تلك الاعاصير والانواء العاصفة
التي تؤلم الباسيفيك وتحزنه . . .

ترجمة : سهيل ادريس

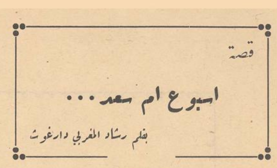
اتمنى ...

للحوماني

اتمناك بسن البدر أو أصغر سنّا
كلما مرت بعطفيك يدي جنت وجنا
واذا طافت بخديك جنت ما ليس يجنى
ثمراً ملء فمي ابصرَه غيري فحنّا
ومضى يقرعُ من جور الهوى . . .
. . . سناً فسنا

أتمنى ان تمري بي وقد هومّتُ وهْنا
أرصد النجم واستوحيه من روحك معنى
ثم امليه على الدوح فيبدو مطمئنا
ولقد يهتز اذ أنشده حتى يُجَنّا
ثملا يكرعُ من خمر الهوى . . .
. . . دناً فدنا

أتمنى ، والهوى كل الهوى ان أتمنى
ان تكوني لي عصفوراً او أغدو لك غصنا
كلما خف به لحنك ألوى وأرنّا
واذا غنّيته انشودة الحب تثنى
يتلقى منك ألحانَ الهوى . . .
. . . لحناً فلحنا



كانت ام سعد تحرّم على نفسها (الغسيل) يوم الاثنين . فقد سمعت امها المرحومة تردد بايمان وصدق :

– « يوم الاثنين ... ما امدّ يدي للطبق ! امي الله يرحمها اوصتني ... ومعها حق ! »

وتروي ام سعد ، بدورها ، على مسامع ابنتها ، ما لقيته كلما خالفت وصية المرحومة امها ، او حاولت ان تهزأ من ذلك التقليد السائد في بيت « القباقيبي » منذ اجيال .

فتارة ينقلب الطبق بمائه الغالي على قدميها ، فيحرقهما . وطوراً يصيبها وجع في الرأس ، تضطر معه الى ترك (الغسيل) الى اليوم التالي . وتارة اخرى تذهل ، فتضع (البياض) مع الاثواب الملونة ، فتتلطخ ويفسد حالها . فاذا لم يحدث شيء من ذلك ، في هذا اليوم ، انقلبت (الصفوة) وتحطمت تلك الآنية الفخارية ، دون ما سبب او مسبب !!!

وام سعد لا تستسيغ القيام باعمـال المنزل يوم الاربعاء . فهذا اليوم يقوم ، في وسط الاسبوع ، كساعة النحس في وسط النهار . فكم طبخة احترقت فيه ! وكم اناء تكسر ! وكم ابرة تحطمت ! وكم ثوب احترق !

وخاصة (تفصيل) الاثواب الجديدة ،وخياطتها – ولو كانت من النوع الرخيص ، الذي لا يتطلب عناية او حرصاً ، ولا يستدعي ملاحظة ثوب الجارة الجديد ، او الاستعانة بخياطة الحي .

وفوق هذا ، فان ام سعد تذكر تماماً انها ما خاطت ثوباً يوم الاربعاء الا احترق ، ولو (ببصة) نارجيلة . كما لا تنسى ان ثوب عرسها الاحمر قد أكله (العث) ، لان الخيـاطة ام محي الدين قد (غزّت) فيه ابرة واحدة ، يوم الاربعاء الذي سبق حفلة زفافها ! وهي ما برحت حتى اليوم حزينة على ذلك الثوب الذي لم تتهنا به ، وان كان ابو سعد قد عوّضها خيراً منه ، في السنة الثالثة منزواجها .

وتفيض ام سعد في سردها حوادث هذا اليوم المشؤم ... على مسامع ابنتها ، وما حفظته الاساطير من اخبار النحس الذي يلازمه ، مستحلفة فتاتها بان لا تقدم على عمل له خطره في يوم الاثنين او اربعاء . فذاك يوم (فضيل) ، وهذا يوم (منحوس) لا يسلم المرء فيهما من خطأ يقع فيه ، او جناية يقترفها .

ثم تقول ام سعد وهي (تفلّي) شعر ابنتها ، قبل ان تضفره :

– « كان ابوك في السوق . وكنت اشعل موقد الحطب بانتظار «الغمة» التي ذهب لابتياعها . ومضت الساعات طويلة مملة . والماء يغلي في القدر ، والحطب يذوب في الموقـد ... واخيراً عاد ابوك ولكن ... دون (كرش) ! فقد زاحمه عليه فلاح ، جاء فاشترى جميع الكروش والمصارين من المسلخ ... »

فتقول الفتاة ، وهي لا ترى في تلك (المصيبة) اية فاجعة تصم يوم الاربعاء بالنحس :

– «ولكن ! تخلصت من الاوساخ! الغمة بلا كرش انظف»

فتشد الام على ضفيرتي الفتاة ، وهي تنهي عملها التزييني ، ثم تردف معلمة مهذبة :

– «ما يربي الكرش الا الكرش يا بنتي ! شو بعرفك انت؟»

ثم تقوم عن فتاتها ، تنفض عن احضانها الشعر المتساقط ، وغيره مما يكون قد افلت من بين انامله .. وهي تستعيذ بالله من هذا (الجيل) الذي لا يقنع ولا يفهم .. ويجادل الكبار باصرار وعناد !

حتى اذا بزغ فجر الخميس ، غدت ام سعد تردد جملتها المأثورة في هذا النهار الذي لا يخلو من ساعة لأبليس :

– « يا لطيف يا امين .. نجنا من ابليس اللعين ! »

وعلى الرغم من ذلك ، كان ابليس يجد منفذاً الى منزل امسعد ، ويفتح ثغرة في جهازها الدفاعي يتسرب منها الى مطبخها ، فيزيد في ملح الطعام حتى لا يمكن (تصريفه) ، او يستعير (منقرة) الكوسى ساعة وبعض ساعة ، او يخفي (مدقة) الثوم ، او ، على الاقل ، يذهل ام سعد عن مراقبة النار فتنطفيء !

وقد كتب لها ابو سعد (حجاباً) بيد الشيخ « البسبوسي » كيما يمنع عنها ابليس ، وما يوسوسه هذا الشيطان اللعين . ثم اطلع عليه الشيخ حفص الحوراني ، فاستحسنه ، وزاد عليه بعض الاشارات القاطعة المانعة ، وختمه بهذه الكلمات ، على سبيل الاحتيـاط من مكر كل خناس من الجنة والناس :

« شمروخ مروخ ! دعوما ملطوما ، رب كيدو . يا يوه يايوه . ديوا معطش . رب قالش . سلسخ ووه سلسلسلح يا الله ! »

ولكن ابليس لم ينفك عن استعارة ادوات المطبخ ، واخفاء حاجات البيت ، في يوم الخميس من كل اسبوع ، وحرق الطعام ، واخماد النار ، وسائر مداعباته السمجة . وام سعد لا تنفك بدورها عن ترديد تعويذتها المفضلة : — « يا لطيف يا امين .. نجنا من ابليس اللعين » حتى يجف ريقها ، وتذهل عن كل ما حولها .

فاذا حان يوم الجمعة، امتنعت ام سعد عن كل عمل، سوى كنس الارض ومسحها، واعداد الطعام. فيوم الجمعة يوم مبارك . وهو يوم الزيارات الواجبة للاهل ولذوي الارحام . لا سيما ان (ابو سعد) نفسه ينقطع عن تجارته فيه ، منذ الضحى حتى المساء . فاذا عاد من عمله ، عند الساعة العاشرة صباحاً ، تغدى ، واستعد لصلاة الظهر في الجامع الكبير ، ثم انصرف الى المقهى يدخن نارجيلته ، في حلقة من اصدقائه وجلسائه ، حتى أذان العصر . وعندما يعود الى البيت ، تكون ام سعد قد أدت واجباتها العائلية وانتهت من زياراتها، وهيأت لزوجها طعام العشاء، ثم جلست تنتظره في أروع زينة وانظف ثياب ... على رأسها باقة من الزهر، وفي صدرها، حنين وشوق ...

فلما كبر اولادها ، وباتت وحيدتها البكر زينب في حدود السن الخطرة ، امتنعت ام سعد عن كل ما يثير في اذهان هؤلاء (الشياطين) ريبة او شكاً . حتى الزهر ، فانها لم تعد تتوج به رأسها الصغير المجعد، والحمرة السائلة ، فانها استغنت عن صبغ شفتيها الرقيقتين بها . وان كان ابو سعد قد افهمها بصراحة انه ما برح شاباً ... وانه غير راض عن هذا السلوك الذي اخذت نفسها به .

فتقول ام سعد والخجل يضرج وجنتيها البارزتين :

« كبر ابنك ، خي ذقنك يا ابو سعد ! »

فيغضب الزوج ، وتستعر في نفسه كبرياء الرجل ، يشرف على الخمسين في ذروة قوته وابان نشاطه ، وهذا التنازع المعنوي الذي يقضي على هناءة العيش في الاسرة الشرقية ، وعلى تعاون الاجيال ، ويقول :

— « عمرهم ما كانوا ! ابدأ بنفسك ! بدي اعيش اولا ! »

وتحاول ام سعد ان تهدىء من ثائرة الرجل ، وتلطف من غضبه ، فتذكره بانهما عاشا وحيدين، عشرة اعوام ، قبل ان تستقر في احشائها اولى ثمرات زواجهما ، وان زينب تكاد تبلغ الثالثة عشرة ، واخاها سعداً في مثل وعيها ، وان كان يصغرها بعشرة اشهر .. فمن الحكمة ان لا يستثيرا ذلك الوعي بظاهر تبرج نهى عنه الشرع ، وان لا يستفزا فضول الاولاد ... في مثل تلك السن .

فيزداد الرجل ثورة ، ويصرخ مهدداً :

« الشرع ! شو بعرفك انت بالشرع ! عليّ الطلاق .. بالثلاثة بالعشرة .. »

فتسارع ام سعد الى حضن زوجها ، لتسد بيدها الصغيرة الناعمة فمه ، قبل ان يتمم قسمه الخطير ، وهي تعده بان تكون له كما يريد ، وعلى الوجه الذي يريد :

— « بس استرنا يا ابو سعد ! ولا تسمع الجيران صوتك ! »

وكان من حسن الحظ ان الاولاد ما برحوا في زيارة عمتهم ، كما زعمت الام لابي سعد . فلما عادوا ، وراحوا يقصون على والدهم ما شاهدوه على الشاشة البيضاء ، استشاط الوالد غضباً ، وحارت الام في امرها . وحسب الرجل ان زوجه تخادعه . فكان نصيب كل من الاولاد (كفين) من كعب الدست ، ونصيب الام طلاقاً ثانياً ، اذا هي سمحت لاولادها بالذهاب الى (كركوز) مع اولاد عمتهم الفاسدين المفسدين .

غير ان سامي — اصغر الاولاد سناً — واجرأهم على ابيه وامه، أبى ان ينام قبل ان يأكل، حيث هو في الحديقة . بينا اغفى اخوته، وهم يبلعون دموعهم فيشرقون بها ، والبدر عند قمة الجبل ، ينشر على الارض ظلالاً تتراقص في كل مكان ، ونوراً يلف الكون بنقاب شفاف يزيده فتنة واغراء .

فحملت ام سعد الطعام الى ابنها ، وجلست قربه تلومه على اصراره على تناول الطعام في الفضاء ، والطقس رطب ، وبرد الخريف مؤذ . فيقول الطفل ، بين لقمتين ازدرد احداهما وعض على الثانية :

— « بيضربنا ليه ؟ هو ما بروح على القهوة ؟

فتنهر الام وليدها مبررة عمل الاب وسعيه الى تأديب اولاده وتربيتهم ، لان (كركوز) مما لا يحسن بالاولاد ان يرتادوا دوره وحدهم . فيردف الابن :

« ليه ما يأخذنا هو ؟ والقهوة مفسدة اكثر ! »

واشرقت شمس السبت في ذلك الحين . فاذا ام سعد تستشعر كرهاً غريباً يداخلها لهذا اليوم، وحيرة تأخذعليها المسالك والطرق، وشهوة للبكاء تنكد عيشها ، وتظلم في وجهها الحياة . فايقنت ان يوم السبت يوم مكروه ... وان الكدر والمقت والهم ملازمة له . فاضافته الى الايام الاخرى .. وراحت تستعيذ بالله من ساعة الغفلة ، وايام النحس ، وكيد ابليس !

وقد عاشت ام سعد ما عاشت، بعد يومها هذا، تحصي لايام السبت

سيئاتها ، ونحوسها . وابنتها زينب تهزأ من تطير امها ، واسرافها في ذلك التطير . حتى كان يوم سبت في تموز سنة ١٩١٧ ، والحرب الكونية في اشد مراحلها خطراً ، وادق ايامها حراجة . فقد استيقظت ام سعد على اصوات بكاء وعويل ونحيب . فاستعاذت بالله من هذا الصباح ، وسألته ان ينقضي يومها ذاك على سلامة ، وان تغيب شمسه باسرع ما يمكن ، فتخلص من وجه الادكن المقوت . واذا بالجارة ام تحسين بك هي التي ماتت هذه المرة جوعاً ، لاحقة بخادمها المملوك الاسود ، الذي توفي منذ اسابيع بداء لم يستطع الاطباء تشخيصه .

ولم ينتصف النهار حتى جاء ابو سعد يحمل الى زوجته خبراً لا يقل عن خبر الموت وقعاً في النفوس ، وحزاً في القلوب :

ـ « طلبوا نمرتي للسفر برلك ! »

فشعرت ام سعد ان الارض تدور فوق رأسها ، وان السماء تطبق على صدرها :

ـ « السفر برلك ! يا ذلي وذل اطفالي ! »

وتنفجر المرأة في بكاء مفجع ، شاركها فيه اولادها ــ والرجل جالس هناك في الزاوية ، على كرسي خشبي متواضع ، ينظر الى الافق من خلال دموعه المتحجرة ، فيرى ما يقشعر له بدنه ، ويسمع ما يصم اذنيه ويعقد لسانه . وامرأته الصبية ؟ وابنته الحسناء ؟ واولاده القصر العاجزون ؟ من يكون لهم بعده ؟

وهذه امرأة جاره التاجر المعتبر ، ابو قاسم ، اضطرتها الظروف القاسية الى بيع الخبز في الاسواق . وتلك ابنة زميله الآخر ، ابو خليل ، قد ألجئت الى الاستخدام .. في منزل احد الضباط المستهترين !

ولكن ابوسعد لم يشأ ان يستظهر اهله هذا الضعف في عواطفه ، وهذا الخور في عزمه . فانتهر زوجته النادبة واولاده المنتحبين ، وقال ، وفي نبرات صوته بحة الاشفاق والالم :

ـ « ما هذا البكاء ؟ انا ان مت فلكم الله ! الله ما بيقطع فيكم ! »

غير انه لم يستطع ان ينهنه دمعاً انفجر في عينيه بالرغم منه ، وغصة اخذت بحلقومه فخنقت صوته . وتعالى البكاء والنحيب مرة ثانية ، فكأن البيت في مأتم .

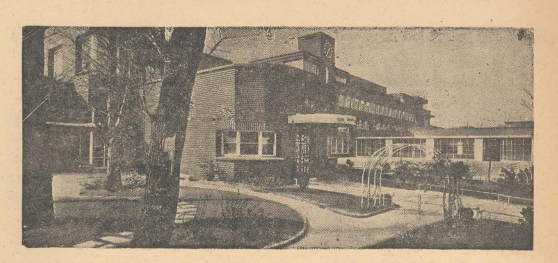
وكان اليوم التالي ، يوم الاحد ، آخر ما تبقى لام سعد من اسبوعها ، بعد يوم الثلاثاء . ولكنها فقدت ثقتها به منذ ذلك اليوم المشؤوم ، وتساوى في نظرها مع سائر الايام . فقد سافر فيه ابوسعد الى ساحات القتال ، على الرغم من توسط الكثيرين لدى المراجع العسكرية ، بطلب العفو عنه ، وهو الاعرج في الاصل ، والمصاب بالنقرس المزمن ، وسند الاسرة الوحيد .

وظل أمل ام سعد معقوداً على يوم الثلاثاء : فهو يوم خير وبركة : فيه خطبت الى ابي سعد ، وفيه شعرت بالحمل اول مرة ، ومن ثم بحركة الجنين ، بعد عقم دام عشر سنوات ، خيل في اثنائها الى (الدايات) والجارات وابي سعد نفسه انه عقر ابدي .

وفي يوم الثلاثاء من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٨ دخل الحلفاء المدينة ، بعد الهدنة . فما انقضى شهر وبضعة ايام حتى عاد ابوسعد .. مشوهاً مريضاً ، ولكنه عاد على كل حال . وعادت الى شفتي امسعد بسمة فارقتها منذ غيب « السفر برلك » وجه زوجها الحبيب .

وما برحت ام سعد تعيش ... بعد موت زوجها لسنوات سبقت هذه الحرب العالمية الثانية ، فلا تحسب من العمر الا يوم الثلاثاء .. ولا تقوم لحاجة الا في يوم الثلاثاء . وهي تعتقد ، منذ ان بلغت الثانين انها ستبلغ العشرين بعد المئة ــ كما قال لها الشيخ الحوراني ــ قبل ان تلتحق بابي سعد في جنات النعيم .

رشاد المغربي دارغوث



احدى مدارس الهواء الطلق التي تعني بتطبيق النظام الفردي



تطور نظام التعليم الفردي في التربية الحديثة

بقلم شفيق نقاش
مجاز في التربية وعلم النفس

لا يزال نظام الصفوف المدرسية المشتركة متبعاً منذ اقدم العصور . ولا تزال التربية الفردية مقتصرة على اولاد الطبقات الخاصة التي تتسع ثروتها لتعليم اولادها في البيت دون ان يندمجوا في البيئة المدرسية .

ولكن الافكار تنبهت منذ اكثر من نصف قرن الى وجوب اصلاح التعليم على اساس العناية بالفروق الفردية بين المتعلمين ، وعلى اساس ما استطاع علم النفس ان يتوصل اليه من نتائج دراسته لأثر العوامل الوراثية والاجتماعية والعقلية في التحصيل . وفي بداية هذا القرن اشتدت حملة علماء النفس والتربية على النظام المشترك في التعليم ، فأخذوا يبينون مساوئه وتنافيه مع تطور التربية ويثبتون بالتجارب عجزه عن مسايرة قدرات التلاميذ العقلية المتفاوتة ، هذه القدرات التي تعد — في نظرهم — اساس القابلية في الدراسة .

وليس الغاء الصفوف المشتركة واتباع طريقة التعليم الفردي بالأمر السهل ، ولم تتوصل اليه امة من الامم بعد ، رغم وجود بوادره في بعض الطرق التربوية الحديثة، التي تطبق اليوم في امريكا واوروبا . ولكن ما يمكن عمله ، هو تطبيق النظام الخاص بتقسيم التلاميذ الى صفوف متقاربة في القدرات العقلية ، وجعل مناهجهم مرنة منوعة تساير استعداداتهم وميولهم . ولا يتم ذلك الا بالغاء التقسيم القديم القائم على اساس السن او الطول او الابجدية واحلال النظام القائم على اساس العمر العقلي . ولعل الثورة الصناعية الحديثة — وليدة القرن التاسع عشر — باقرارها مبدأ التخصص الجزئي في العمل ، توضح لنا فكرة التخصص الميلي في التربية . وتبين لنا ان الحياة كلها تخطو نحو هذا التخصص . فقديماً كان الحذاء مضطراً لصرف اكثر من يوم في صنع اجزاء الحذاء وتركيبها . فلما جاء الانقلاب الصناعي اراح العامل ، وانتج للناس اقصى ما يمكن من الكمية بأقل ما يمكن من الوقت ، وذلك باتباع نظام التخصص

في كل فرع من فروع العمل .

يقابل هـذا الانقلاب الصناعي انقلاب تربوي خطير ، تطور نفس التطور ومرّ بنفس الأدوار . فكان همّ المدرس قديماً ان يُعطي اكبر كمية من جرعات المعلومات الى التلميذ دون مراعاة أي مؤثر على ذلك المسكين ، ودون اعتبار أي ميل او رغبة او اعتراض يبدو منه . فلما بدأ الانقلاب التربوي الأخير جعل المدارس تشعر بحاجتها الى الاخصائيين في التربية وعلم النفس ليقوموا بالتجارب الشخصية والاختبارات الفردية ، وليوجهوا كلا من التلاميذ نحو التخصص في الجزء الذي يميل اليه ، فيقبل عليه بمحض ارادته ، ويعدّ مستقبله على اساسه . والملاحظ ان ارقى الامم تقدماً في ميدان الصناعة هي ارقاها تخصصاً في التربية والتعليم .

نشأة نظام العناية الفردية في التربية الحديثة وانتشاره في العالم

يذكر لنا المربي السويسري الكبير الدكتور « كلاباريد » في كتابه « نفسية الطفل والتربية التجريبية » ثلاث مراحل اجتازها نظام العناية الفردية في التربية الحديثة . وهي :

١ — التعليم الخاص بالمتأخرين والشواذ . وقد أوجدته سويسرا ثم المانيا .

٢ — المدرسة حسب الفروق الفردية . وقد حققتهـا المانيا .

٣ — التعليم الخاص بالنجباء والمتفوقين . وقد أوجدته الولايات المتحدة .

ان هذه المراحل الثلاث تميز التربية في اتجاهها الحديث . فهي تسير حسب الاستعداد العقلي لكل تلميذ . فلا تجني على الأذكياء بادماجهم مع الأغبياء ، ولا على هؤلاء باهمالهم وقتل ما تبقى من نفوسهم بالزجر والتأنيب .

وسنعرض بايجاز لتطور هذه المراحل وانتشارها في العالم ومبلغ ما افاده التعليم منها .

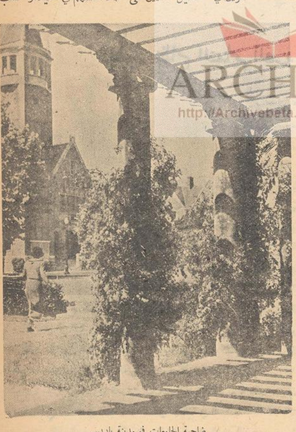
١ — التعليم الخاص بالمتأخرين عقلياً والشواذ

كانت اولى المحاولات لتخفيف مصاب هؤلاء الاولاد — الذين افقدتهم الطبيعة شيئاً من القدرة العقلية على التحصيل — في سنة ١٨٤١ في سويسرا . اذ اسس لهم الدكتور Guggenbüh! ملجأفي Abendberg وجاهد في سبيل مشروعه حتى نجح وبدأ ينتشر في مدن سويسرا .

وفي سنة ١٨٥٠ بلغ عدد هذه الملاجيء ثمـانية . كانت خاصة بالأولاد الذين يشفق اولياؤهم من ارسالهم الى المدارس العادية ، لانها تحملهم فوق طاقتهم ، وبأولئك الذين كانوا لا يستفيدون شيئاً من مدارس الحكومة لأنها لا تستطيع ان توجه اليهم عناية خاصة . بل تعاملهم معاملة المتوسطين والمتفوقين ، مع انهم لا يدركون شأو اولئك ولا هؤلاء في شيء .

ثم اتسعت الفكرة واتجهت نحو تأسيس صفوف خاصة بالمتأخرين في مدارس المدن الكبرى .

وليس ادل على نجاح هذا النظام وانتشاره من الاحصاء الذي يذكر لنـا بأن عدد المدارس التي طبقت هذا النظام كان تسعاً في بداية الامر ولكنه بلغ السبعين سنة ١٦٢١ . ثم عمّ جميع مدارس سويسرا الرسمية حسب نظام المعارف . ولقد دلت النتائج ان الغاية التي من اجلها انشأت هذه الصفوف قد تحققت فأصبح اكثر اولئك المتأخرين في التحصيل قادرين على اعتماد انفسهم في الحياة وكسب



ضاحية الجامعات في مدينة باريس

قوتهم بفضل توجيههم حسب استعداداتهم وميولهم الخاصة .

٢ — المدرسة حسب الفروق الفردية

انتقل هذا النظام الى المانيا وانتشر فيها بشكل انظم وأوسع بفضل الدكتور Sickinger المستشار التربوي في مقاطعة Mannheim فلنستمع اليه يحدثنا في تقرير له عن رأيه في تحوير هذا النظام والعناية بتطبيقه . قال :

« لاحظت ان خمسين بالمئة من سكان مقاطعة Mannheim لا يتمون تحصيلهم العالي ، بل يدخلون الحياة العملية وهم على جانب يسير من الثقافة . وقد تبين لي بعد الاختبار ان عجزهم هذا راجع لكرههم الدراسة بسبب فهمهم البطيء وقصورهم عن مجاراة رفاقهم وفقدان النظام الذي يساعدهم على التحصيل حسب قابلياتهم . ولما كانت التربية تهيء الناشيء للحياة الاجتماعية العملية وجب ان تكون هي نفسها اجتماعية عملية في سيرها ، وان تخضع لشرطين اساسيين : اولهما تربوي يتلخص في ان يتعلم الانسان ليعيش مهما كان نموه الجسمي او العقلي بطيئاً ، وثانيهما صحي يتلخص بوجوب تجنب كل مجهود دراسي يضر في صحة الناشيء . ولهذين السببين ارى ضرورة الجمع في الصف الواحد بين تلاميذ متجانسين في نموهم العقلي . ويتم ذلك اذا انشأنا :

ا — الصفوف العادية للمتوسطين .

ب — الصفوف الخاصة ببطيئي الفهم .

ج — الصفوف الخاصة بالشواذ .

واذا كانت الشروط الصحية والنفسية التي يحيا فيها التلميذ لا تضمن نموه الطبيعي ، فمن الواجب خلق بيئة ملائمة له تساعد على اتزان نموه . ويتم ذلك اذا خفضنا عدد التلاميذ في الصف الواحد واعددنا المعلمين الأكفاء ، وجعلنا المناهج مرنة تجاري ميول المتعلمين » .

وعلى هذا الاساس بدأ نظام العناية الفردية ينتشر في مدارس المانيا كما انتشر في سويسرا . وكان تطوره هذا بمثابة مرحلة انتقال توسعت فيها الفكرة وانتظمت واقتنع الناس بوجوب الأخذ بها . ولما كانت النهضة الامريكية وليدة اليقظة الاوروبية الحديثة في شتى نواحي الحضارة . فقد بدأت امريكا تتابع باهتمام ما يطرأ على نظم التربية في اوروبا . ولا تلبث ان تأخذ بهذه النظم وتجربها وتوفقها حسب حاجاتها .

وهكذا اقتبست هذا النظام وجربته . فنجحت تجربتها ، وسرعان ما انتشر في معظم ولاياتها مع شيء من التحوير والتوسع . فيحدثنا المستر Dickson مدير مكتب الأبحاث التربوية في Oakland بأنه قبل تنظيم مدارس هذه المقاطعة على اساس العمر العقلي دل الاحصاء في نهاية احدى السنين المدرسية على وجود ١٧٧٦ راسباً من اصل ١٦ الف متقدم للامتحان . وكان هذا الرسوب ناتجاً عن تفاوت التلاميذ في قابلياتهم . اما بعد اقتباس النظام الاوروبي الحديث فقد اصبح كل تلميذ ينتظم في الصف الذي يلائم عقليته . ولقد اتُبعت في تنظيم مدارس Oakland تقسيمها الى خمسة صفوف بدلا من ثلاثة . وهي :

ا — الصفوف الخاصة بالنجباء والمتفوقين ، وهؤلاء يتقدمون في الدراسة بالسرعة التي تلائم نبوغهم .

ب — الصفوف العادية ، وتضم المتوسطين في الذكاء والعاديين .

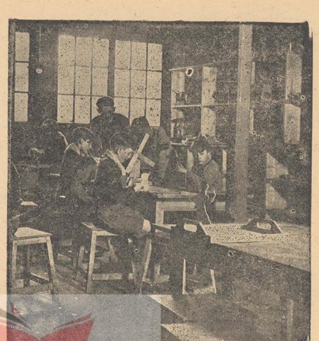
ج — الصفوف الخاصة بضعاف الاجسام او المتأخرين في دخول المدرسة .

د — الصفوف الخاصة بمن هم اقل من المتوسط ، وتضم التلاميذ غير القادرين على مجاراة المناهج العادية .

هـ — الصفوف الخاصة بالشواذ . وهم من يتأخر عمرهم العقلي عن عمرهم الزمني من سنة الى ثلاث سنوات .

وهذه الصفوف تختلف باختلاف بيئات التلاميذ واوساطهم الاجتماعية . ففي احدى المدارس كان حول الخمسين في المائة من التلاميذ في صفوف ج ، د ، هـ . وفي مدرسة اخرى كان اكثر من خمسين في المائة في صفوف «ا» و«ب» . ولم يكن في «هـ» سوى ٣ في المائة .

وينهي الدكتور المذكور تقريره بقوله : « ان ترتيب التلاميذ حسب عمرهم العقلي قد أدى الى نتائج مشجعة جداً في التعليم الابتدائي والثانوي . وهو يتقدم بخطوات واسعة لكي يشمل المدارس القديمة . »


بعض طلبة مدرسة «دي روش» في معمل الاشغال اليدوية

عندما يدخل الطفل روضة الاطفال او المدرسة الأولية الاجبارية بين سن ٥ و ٧ تجرى له اختبارات الذكاء لتحديد عمره العقلي واستخراج نسبة ذكائه واكتشاف ميوله واستعداداته الخاصة . وعندما ينتقل الى المدرسة الابتدائية تقدم الروضة او المدرسة الأولية تقريراً مفصلاً يشمل نتائج ملاحظاتها عنه .

وبعد اطلاع الادارة على هذا التقرير تختبر ذكاءه من جديد باختبارات Binet-Simon المعدلة . وتضيف بعض اختبارات خاصة في القراءة والحساب . وعلى اساس نتائج هذه الاختبارات ينتظم الولد في الصف الذي يلائم عقليته واستعداده للتحصيل . فهذا التنظيم يمهد لجميع التلاميذ تعلماً ونمواً يتفقان وقدراتهم الخاصة .

٣ — التعليم الخاص بالنجباء والمتفوقين

يقول المربي الامريكي Terman : « ان الهيئة الاجتماعية تستفيد اذا اكتشفت ولداً واحداً نابغاً واهتمت به اكثر مما تستفيد لو وجهت هذا الاهتمام الى الف من الضعفاء والشاذين . »

ولقد كانت امريكا اول امة فطنت لهذه الحقيقة ، فشعرت ان النوابغ — وهم الأقلية النادرة في كل مدرسة — مهضومي الحقوق ، لا تستطيع المدارس ان توجه لهم عناية فردية خاصة . ولا تتمكن من تغذية نبوغهم وتوجيه نشاطهم بالسرعة المطلوبة . فاتجهت الأفكار نحو فتح مدارس تضم هؤلاء « النوابغ » وتُعنى بهم عناية فردية واسعة وتوجه كلاً منهم لما خلق له كي تضمن الانتفاع بعبقريته .

اما الأسس التي ترمي الى تحقيقها هذه المدارس — على ندرتها — فهي :

١) تزويد « النوابغ » بالمعلومات التي تساير تفوقهم وتغذي نشاطهم .

٢) جعل المنهج التعليمي في هذه المدارس واسعاً يشمل اكثر نواحي الحياة .

ولا يتسع المجال لأحدثك عن انتشار هذا النظام في بقية دول العالم ، ولكني اكتفي بذكر استشهاد يدل على مبلغ نجاحه عند تطبيقه في انجلترا . فقد دلت الاحصاآت ان ٦٨ في المائة من التلاميذ المتأخرين عقلياً والشواذ تمكنوا من اكتساب عيشهم بعد تخرجهم من المدارس . ولم يكونوا عالة على المجتمع وان ٥ في المائة او ٦ من البنات ايضاً تمكنّ من اعتماد انفسهن في الحياة . كل ذلك بفضل نظام العناية الفردية الذي يضمن توجيههم حسب استعداداتهم وقدراتهم الخاصة .

يقول المربي Duvillard في تقرير قدمه لمؤتمر التربية بسويسرا :

« لقد قامت التربية بواجبها نحو ضعفاء العقول والشواذ يوم أوجدت الصفوف الخاصة بهم ، وستنتهي مهمتها يوم تفتح الصفوف والمدارس الخاصة بالنجباء والمتفوقين . »

ولكي اعطيك صورة عملية عن هذا النظام اذكر لك الطريقة المتبعة في تطبيقه بمدارس سويسرا .

٣) تقسيم النابغين الى فرق حسب نوع نبوغهم . وافساح المجال امام كل منهم لينتج في ميدانه الخاص .

٤) العناية بالتوجيه المهني في مرحلة التخصص العليا . فلا يتخصص «النابغ» في المهنة التي يرغب فيها والده او اهله او مدرسته وانما في المهنة التي منحته الطبيعة قدرة خاصة على النجاح فيها، والتي يمكن معرفتها باختبارات خاصة تُجرى له وتعرف « باختبارات التوجيه المهني » .

من كل ما تقدم نرى ان التربية الحديثة تتميز اليوم بنزعتين خطيرتين هما :

١) العناية بأمر التلميذ الفرد.

أي دراسة الفروق الفردية بين المتعلمين وجعل المدارس في تنظيمها ومناهجها وطرقها التربوية قائمة على اساس هذه الفروق .

٢) ان يستطيع كل مواطن في الأمة ان يتعلم ويكتسب رزقه مهما كان نمو جسمه او عقله بطيئاً .

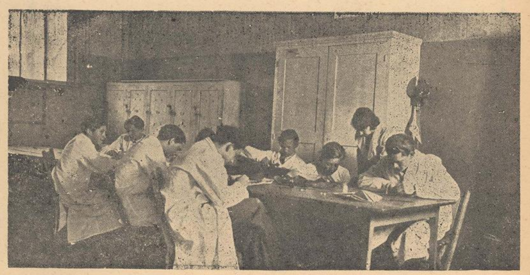
ان نظم التعليم القديمة التي تحشر التلاميذ في المدرسة وتوزعهم على الصفوف بنسبة طولهم او سنهم او اخلاقهم او اتساع الغرف لعددهم ثم تعمل على صبهم في قالب واحد مهما اختلفت عقلياتهم وتباينت استعداداتهم، هي نظم فاشلة لا يمكن ان تثمر أية ثمرة، فهي تكلف الضعيف او الشاذ ما لا طاقة له به ، وتطالبة بمواد لا تتفق مع استعداداته ولا تحتملها مداركه ، فتجني عليه وتلحق به أشد الأذى . كما انها تفشل في تعليم الذكي والمتفوق لأنها لا تستطيع ان تهيء له اسباب الانتفاع بمواهبه فيخسر نفسه وتخسره الأمة .

ان المستقبل يتطلب منا ان نساير النظم الحديثة في التعليم لأنها نُظم ثبتت صحتها بالتجارب ولم تعد قابلة للجدل .

ونظام الاهتمام بالفروق الفردية في طليعة هذه النظم التي يجب ان نمنحها عنايتنا .

شفيق نقاش

طلبة احد الصفوف الثانوية في مدرسة « دي روش » الفرنسية . وهي من احدث مدارس العالم التي تعنى بالفردية



ابتهال

*

في شفتيك النداء أحوى وفي عينيـك بحت اصداء مرمى بعيـدِ
وتعرى فجر بخديك محموم ورفت احـلام بيض الورود
وعلى ذيلـك المضمّخ بالعطر نفوس تسمو بـذل السجودِ

•

كم كؤوس في راحتيّ تمنت بين كفيك سكر دهر مديد
والرياحـين تمتم السكر في فيها صلاةً لحسنك المعبودِ
والدجى ذاهلٌ على شعرك الغافي وينداح موجه في ركودِ
فالنجوم الوسنى ترشّ حبـابا راقصاً في رفيف فجر جـديد

•

وانا واقف هنـا ألمّ امانيّ اليتامى في غفلة عن وجودي
غـير اني اراك نصب ذهولي وعـلى مقولي رنـين قصيد
وارى الكون في حدود ومعناك غريب يفيض بعد الحدود

علي محمد شلق — صيدا

الرمزية في الادب الصوفي

بقلم اسعد طلس
دكتور في الآداب
وعضو المعهد الفرنسي بدمشق

لا اريد ان اتحدث عن نشأة الصوفية في الاسلام ولا عن عناصرها الاسلامية او غير الاسلامية من فارسية وهندية ويونانية، ولا أريد ان أبين أثر الصوفية في الحضارة العربية والحركات الاجتماعية، كما اني لا اريد ايضاً ان ابين تاريخ حملة علماء الظاهر على الصوفية وما قاسوه في سبيل مذهبهم من تقتيل وتعذيب ولكني سأتحدث عن طرف من اخبارهم وادبهم الرفيع وبخاصة الادب الرمزي وأتبين معكم سمو هذا الادب لنضعه في المكان اللائق به بعد ان أنكره الناس في القديم وحاربوا اصحابه وجئنا نحن في العصر الحديث فاهملناه ايضاً وفي هذا نقص كبير لانه جهل بناحية غنية من ادبنا العربي لا تقل روعة عن كثير من نواحيه الاخرى ان لم نقل انها تفوقها في سمو افكارها وحضها على مكارم الاخلاق والدعوة الى حياة معنوية الامم في هذه الايام شديدة الحاجة اليها لطغيان المادية والقوّة على نفوسهم القاسية، وما ضاع هذا الشرق الا حين ترك فلسفته القدسية الروحية وانصرف نحو الغرب المادي يطلب منه فلسفة وعلماً فاذا هو يفقد فلسفته الروحية الطاهرة المتوارثة التي تلائم نفسه وعقله واقليمه ثم اذا هو لا يجني من فلسفة الغرب الا الظواهر والمتاعب والاباطيل، اما اللباب والخير فلا يعرف سبيلاً اليهما.

في الادب الصوفي تتجلى ناحية من الفلسفة الاسلامية بثوب ادبي جميل، وفي الادب الصوفي تتجلى نظريات الفلسفات القديمة مصوغة صياغة عليها طابع القرآن الكريم، تتجلى نظريات اريسطو وافلاطون وافلوطين في وحدة الخالق وفي المادة التي يقول عنها افلوطين انها سبب الشرور وان الغاية من الحياة يجب ان تكون في التحرر من ربقة المادة وان اول خطوة لذلك التحرر هي في التخلص من سلطان الجسم والحواس، والخطوة الثانية هي التفكير العميق، والخطوة الثالثة هي ان تسمو النفس فوق التفكير الى المعرفة، والخطوة الرابعة هي الفناء في الله بالهيام والوجد وذلك اوج التصوف.

وان النفوس البشرية الراقية تصل الى هذه الدرجة في لحظات من الحياة ثم تعود الى حياتها البشرية المألوفة. في الادب الصوفي تجدون ان الصوفيين لم يكونوا قوماً بلهاً او معتوهين وانما هم قوم عرفوا حقيقة الحياة وفساد نظام الكون وسوء الانظمة البشرية واضطراب توزيع الثروات والحظوظ، فانصرفوا عن الحياة واعراضها وسلكوا سبيلاً اوصلتهم الى حياة هادئة مطمئنة. ثم ان بعض الناس يظنون ان الصوفية معناها كره الدنيا وتعطيل مصالح الكون واذا كان ذلك كذلك فما فائدة مذهب هذه اهدافه وما قيمة ادب تلك مراميه. الحق ان هؤلاء مخطئون لان الصوفية كما أحبوا الآخرة احبوا الدنيا؛ والدنيا والآخرة عندهم حالتان احداهما اقرب من الاخرى، فكيف يُتصور ان يحب الانسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم لان الغد سيصير حالة راهنة، فالحالة الراهنة لا بد من ان تكون مطلوبة ايضاً. الا ان الحظوظ العاجلة منقسمة الى ما يضاد حظوظ الآخرة وهو الذي احترز عنه الانبياء وامروا بالاحتراز عنه، والى ما لا يضاد وهو ما لم يمتنع الانبياء عنه، فهل يبقى بعد هذا مطعن على طريقة طهارتها تطهير القلب عما سوى الله ومفتاحها استغراق القلب بذكر الله وختامها الفناء في الله الذي يقول عنه الغزالي: ومن ثم تبتدىء المكاشفات ثم تترقى الحال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق فلا يحاول معبر ان يعبر عنها الا اذا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه. هذا ما يقوله الغزالي قدمناه لئلا يعترض معترض على مايتراءى له من ظاهر عبارات الصوفية مما لا يعجبه.

أدب الصوفية نوعان: فطري وهو أدب صريح ليس فيه رمز ولا تعقيد. وأدب كله رمز واشارات وكنايات. فالاول هو ما نجده عند ادباء المتصوفة في القرنين الثاني والثالث للهجرة ومن افضل من يمثله الحسن البصري ورابعة العدوية، والثاني أعني الادب الرمزي هو ما نجده في القرن الرابع وما بعده عند الحلاج

والسهروردي وابن الفارض وابن عربي ثم عبد الغني النابلسي . ويظهر ان السبب في نشأة هذا الادب هو تلك الحملة القوية التي شنها علماء الظاهر من الفقهاء على علماء الباطن من الصوفية فاخذ كل فريق يهاجم الاخر ويشنع عليه فاضطر الصوفية الى الرمز والتعمية في كلامهم . بعد هذه المقدمة ننتقل الى حدائق الادب الصوفي فنبتدىء بالادب الفطري ثم نعرج على الادب الرمزي ثم نخلص من ذلك الى النتيجة . من افضل من يمثل لنا الادب الفطري الحسن البصري المتوفي سنة ١١٠ وهو من اقدم الصوفية وشيخهم في البصرة وسيد التابعين الذي قال عنه ابو عمرو بن العلاء : مارأيت افصح من الحسن البصري والحجاج والحسن افصحهما . كان يعقد مجالس الوعظ والتصوف في مسجد البصرة فيعظ الناس ويذكرهم بالاخرة ويستخرج العظات مما يقع حوله من الحوادث . ومما أثر من كلامه قوله : يا ابن آدم لا ترضينّ احداً بسخط الله ، ولا تطيعنّ احداً بمعصية الله ، ولا تحسدنّ احداً على فضل الله ، ولا تلومنّ احداً فيما لم يؤتك الله . يا ابن آدم لم تكن فكوّنت ، وسألت فاعطيت وسُئلت فمُنعت فبئس ما صنعت . يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . الثواء ههنا قليل والبقاء هناك طويل . أمتكم آخرُ الامم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون ؟ المعاينة ? فكأن قد! هيهات هيهات ! ! ذهبت الدنيا بحالها وبقيت الاعمال قلائد في اعناق بني آدم . فيا لها موعظةً لو وافقت من القلوب حياة ، ان من رأى محمداً حل فقد رآه غادياً ورائحاً لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ، رُفع له علم فشمر اليه فالنجاء النجاء . . . ومن كلماته وقد سأله بعض اصحابه عن الفتن السياسية التي كانت تقع في عصره فقال : لا تكن مع هؤلاء ، ولا مع هؤلاء . فقام اليه رجل من اهل الشام فقال : ولا مع امير المؤمنين يا ابا سعيد ? فغضب وقال بيده فخطر بها ثم قال : ولا مع امير المؤمنين يا ابا سعيد . نعم ولا مع امير المؤمنين . فهل رأيتم فصاحة وقوة جنان وايمان ودعوة الى الحق مثل هذه الكلمات ? اللهم لا . لان الحسن كان من اصح الناس ايماناً واكثرهم صلاحاً وفصاحة وجرأة في الحق . . سئل مرة عن ولاية يزيد فلم يستصوبها ولا شك في انه كان يعلم ان كلماته ستصل الى آذان امير المؤمنين ولكنه كان يعلم ان الحق اقوى من امير المؤمنين . ومن كلماته الرفيعة قوله : ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه الا الموت . فهل رأيتم حكمة اروع في تصوير حقيقة الموت ويقينه مع تناسي الناس اياه من كلمة الحسن ?

ثم هل رأيتم وعظاً أصدق لفظاً وأطهر نَفَساً واعظم اخلاصاً من مواعظ الحسن . هذا نمط من الادب الصوفي الفطري ، اما لغته فانتم ترون سموها وانتقاء كلماتها وحسن نظمها . واما افكاره ومعانيه فانتم ترون فيها الخلق المتين والجرأة الصادقة والدين القوي والتنفير من الوقوع في الاثم والدعوة الى تهذيب النفس وتقويمها . انتقل بعد هذا المثل من الادب الفطري الى جنة أورف ظلاً واكثر ثمراً تلك هي جنة الرمزيين من الصوفية . لقد ضاقت اللغة على سعتها عن استيعاب معانيهم فحملوا كلماتها معاني جديدة ضمنوها افكارهم العميقة فاستعملوا كلمة (السفر) يريدون بها توجه القلب الى الله وكلمة (الحال) يريدون بها ما يرد على القلب من اشراقات الهية ، وكلمة (الانس) يريدون بها مشاهدة جمال الحضرة الالهية في القلب وكلمة (الوجد) يريدون بها ما يصادفه القلب من الاحوال المغنية له عن شهوده ، وكلمة (الراح) ويريدون بها النشوة التي يلاقيها المرء حالة الوجد ، وكلمة (السر) ويريدون بها ما يقذفه الله من المعرفة في قلب الصوفي ، وكلمة (الحقيقة) يريدون بها سلب آثار اوصاف الانسان عن نفسه بأوصاف الله . . . الى غير ذلك من الكلمات الكثيرة التي لا يحق لمن يريد ان يقرأ الادب الصوفي الا ان يدرسها وعلى ضوء هذه الكلمات يستطيع ان يتبين بوضوح معاني اية قطعة من الادب الصوفي كالقطعة المشهورة للسهروردي .

ابداً تحن اليكم الارواح ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب اهل ودادكم تشتاقكم والى لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمتا للعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح
بالسر ان باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح
واذا همُ كتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمع السفاح
ركبوا على سنن الوفا ودموعهم بحرٌ وحادي شوقهم ملاّح

بعد هذا ننتقل الى الحديث عن اثنين من زعماء الادب الرمزي هما الحلاج وابن عربي . فالحلاج هو ابو المغيث الحسين بن منصور البغدادي ، نشأ بالعراق وصحب الجنيد ابا القاسم وغيره من علماء العراق وصوفيته ، فتعلم علوم الظاهر وبرع بها ثم هجر ذلك كله الى عالم الحقيقة فوقف نفسه على الجهاد في سبيل الله والمجاهدة في سبيله والارشاد والوعظ والسياحة . قال ابو يعقوب النهرجوري : دخل الحلاج مكة اول دخلة وجلس في صحن المسجد سنة لم يبرح من موضعه الا للطهارة والطواف ولم يحترز من الشمس ولا من المطر ،

وكان يُحمل اليه في كل عشية كوز ماء وقرص من اقراص مكة، وكان عند الصباح يُرى القرص على رأس الكوز وقد عض منه ثلاث عضات او اربعاً فيُحمل من عنده. وحكى ابن فيروز جاره انه كان ينوي في اول رمضان ويفطر يوم العيد ويختم القرآن كل ليلة في ركعتين وكل يوم في مائتي ركعة . وظل على هذا الزهد وتلك العبادة الى قتل، والناس فيه مختلفون فمن مبالغ في تعظيمه ومن مكفر ومن متوقف . وممن عظموه الغزالي فقد عقد في كتابه مشكاة الانوار فصلًا طويلًا عنه واعتذر عن الالفاظ التي كانت تصدر منه كقوله : انا الحق وما في الجبة الا الله وحملها كلها على محامل حسنة فقال : ان هذا من فرط المحبة كقول القائل :

انا من اهوى ومن اهوى انا   نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتني أبصرته   واذا ابصرته أبصرتنا

أما قصة قتله فمن افظع القصص وافجعها خلاصتها انه تكلم مرة في حضرة حامد بن عباس وزير المقتدر بالله بكلام لم يُعجب قاضي بغداد ابا عمر فافتى بقتله هو وجماعته من الفقهاء فسجن حتى كان اليوم الرابع والعشرون من ذي العقدة سنة تسع وثلاثماية فاخرجوه من سجنه والاغلال في عنقه ورجليه ويديه فشرع الجلاد يعذبه فضربه الف سوط وهو لا يتأوه ثم قطع يديه ورجليه ثم حز رأسه وأحرق جثته ولما صارت رماداً ألقاها في دجلة ونصب الرأس على الجسر والمؤرخون يذكرون انه لما قطعت يداه ورجلاه قال : الهي اصبحتُ في دار الرغائب (أى الدنيا) انظر الى العجائب ، الهي انك تتودد الى من يؤذيك فكيف لا تتودد الى من يؤذى فيك .

هذا موجز سيرة الحلاج وقد استقصاها المستشرق الفرنسي الكبير لويس ماسينيون في كتاب قيم في مجلدين ونشر له كتاب الطواسين وكتاب اخباره بمعاونة المستشرق الاستاذ باول كراوس . وللحلاج نثر متين جداً في اسلوبه وافكاره وروحه وله شعر جيد جمع في ديوان صغير . فأما نثره فنجده في احاديثه وفي رسائله وفي ادعيته .

ومن احاديثه قوله لابي اسحاق ابراهيم بن عبدالكريم الحلواني حين قال له مرة يا شيخ أريد ان اعلم شيئاً من مذهب الباطن فقال : أباطنَ الباطل او باطن الحق قال ابراهيم فبقيت متفكراً فقال : اما باطن الحق فظاهره الشريعة ومن يحقق في الشريعة ينكشف له باطنها وهو المعرفة بالله . اما باطن الباطل فباطنه اقبح من ظاهره وظاهره اشنع من باطنه فلا تشتغل به . يا بني اذكر لك شيئاً من تحقيقي في ظاهر الشريعة : ما تمذهبت بمذهب احد من الائمة جملة وانما اخذت من كل مذهب أصعبه وانا الآن على ذلك ، ما صليت صلاة الفرض قط الا وقد اغتسلت اولا ثم توضأت لها وهاأنذا ابن سبعين . ومن رسائله ما كتب به الى جندب الواسطي : بسم الله الرحمن الرحيم المتجلي عن كل شيء لمن يشاء ، السلام عليك يا ولدي ستر الله عليك ظاهر الشريعة وكشف لك حقيقة الكفر فان ظاهر الشريعة كفر خفي وحقيقة الكفر معرفة جلية ، اما بعد فاحمد الله الذي يتجلى على رأس ابرة لمن يشاء ويستتر في السموات والارض عمن يشاء حتى يُشهد بان لا هو ، ويشهد بان لا غيره ، فلا الشاهد على نفيه مردود ولا الشاهد باثباته محمود ، والمقصود بهذا الكتاب اني اوصيك ان لا تغتر بالله ولا تيأس منه ولا ترغب في محبته ولا ترض ان تكون غير محب ولا تقل باثباته ولا تمل الى نفيه واياك والتوحيد :

كفرت بدين الله والكفر واجب   لدي وعند المسلمين قبيح

والسلام .

وقد احدثت هذه الرسالة ضجة في عالم التصوف والفلسفة فأشار اليها عبد الكريم الجيلي في كتابه المناظر الالهية وهو نسخة يملكها السيد مصطفى سيباي فيها كثير من ابحاث التصوف ونقاطه العميقة واشار اليها ابن سينا في رسالة بعث بها الى صديقه ابن ابي الخير وشرحها شرحاً مطولا ابن عربي والنسخة محفوظة بالخزانة الاصفية بالهند ، ومما اطلعت عليه في كتاب المناظر الالهية من الاشارة الى هذه الرسالة قول الجيلي في باب منظر الكفر : كشف الله لك سر الكفر فان فيه حقيقة الايمان وحجب عنك سر الايمان فان فيه حقيقة الكفر . والكفر الذي اشار اليه هو الكفر الحقيقي والاسلام الذي اشار اليه هو الاسلام المجازي . وقد اراد الحلاج في رسالته ان يحذر تلميذه من الرياء فالتوحيد الذي يحذره منه هو التوحيد اللساني فقط . ومن ادعيته ما حكاه ابن فاتك قال : قصدت الحلاج ليلة فرأيته يصلي فلما أتم صلاته قال : اللهم انت المأمول بكل خير، المسؤول عن كل مهم ، المرجو منك قضاء كل حاجة ، المطلوب من فضلك الواسع كل عفو ورحمة ، انت تعلم ولا تُعلم ، وترى ولا تُرى ، وتخبر عن اسرار ضمائر خلقك وانت على كل شيء قدير ، وانا بما وجدت من روائح نسيم حبك وعواطر قربك استحقر الراسيات واستخف الارض والسموات وبحقك لو بعتَ مني الجنة بلمحة من وقتي او بطرفة من أحرّ انفاسي لما اشتريتها ولو عرضت عليّ النار بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتها في مقابلة

مـا انا فيه من حال استتارك مني فاعف عن الخلق ولا تعف عني وارحمهم ولا ترحمني فلا اخاصمك لنفسي ، ولا اسألك بحقي فافعل بي ما تريد .

هذه نماذج من نثر الحلاج على اختلاف ضروبه اما لغته فأظن انها لغة لا غبار عليها وهي بغير شك لا تقل عن لغة الصاحب بن عباد وابن العميد ان لم تكن اجود لخلوها من التكلف والتصنع وانما هي لغة اتخذت الكلمات وسائل الى المعاني وما خُلقت الكلمات الا لذلك . اما السجع والازدواج والزخرفة فتلك قشور يهتم بهـا اهل الظاهر ممن تغرهم خضراء الدمن . واما معانيه وافكاره فلا اقول انها جيدة ولا اقول انها سامية المرامي وانما اريد ان التفتكم الى انه قد عالج فيها اموراً لها خطرها في الفلسفة والتصوف ، فهل هناك امر اكثر شأناً من معالجة قضية الحب الالهي والتفـاني فيه ووحدة الوجود . والحلاج تارة يصرح في كلامه وتارة يعمي ، ثم انه ليس من شك عندنا في انه قد استعان بما قرأه من فلسفة الهند واليونان على معالجة كثير من نواحي هذه النقاط ، كما استعان بتينكم الفلسفتين من جاءوا من بعده امثـال محي الدين بن عربي وعبد الكريم الجيلي . اما شعر الحلاج فقد ضمنه آراءه في وحدة الوجود والحب الالهي والاستغراق فيه وترون ذلك واضحاً في المقطوعة الآتية : حكى احمد بن القاسم بن الزاهد قال : سمعت الحلاج في سوق بغداد يصيح يأهل الاسلام أغيثوني فليس يتركني ونفسي فآنس بها وليس يأخذني من نفسي فاستريح منهـا وهذا دلال لا أطيقه ثم انشأ يقول :

أقلب قلبي في سواك فلا ارى ... سوى وحشتي منه وانت به أنسي
فها أنا في حبس الحيـاة ممنع ... عن الانس فاقبضني اليك من الحبس

فهو في هذه المقطوعة يستغيث من الله لانه لا يترك له نفسه حرة تستأنس بالحرية ولا هو يقبضها اليه من حبس الحياة . ألا ترون في هذا الكلام معالجة دقيقة لمشكلة من مشاكل الفلسفة ، تلك هي مشكلة خلق العالم . فلماذا خلق الله هذا العـالم ، ولماذا ابتلى ناساً بالمعصية وناساً بالعبادة وناساً بالقرب وناساً بالبعد ، ثم لمـاذا لم يهيء سبل الحياة لمن يحبونه ، فالحلاج يرى ان الحل الوحيد لهذه المشكلة اما ان يُترك الانسان حراً يفعل ويقول ما يشاء . واما ان يقبض من هذه الحياة فيستريح . ومن شعر الحلاج الذي يمثل لنا فلسفته في وحدة الوجود والحب الالهي قوله :

جُبلت روحك في روحي كما ... يُجبل العنبرُ بالمسك الفتق
فـاذا مسكَ شيءٌ مسني ... فـاذا انتَ انا لا نفترق

وقوله :

مُزجت روحك في روحي كما ... تُمزج الخمرةُ بالمـاء الزلال
فـاذا مسكَ شيءٌ مسني ... فاذا انتَ انا في كل حال

وقوله :

انت بين الشغاف والقلب تجري ... مثل جري الدموع في الاجفان
وتحل الضمير جوفَ فؤادي ... كحلول الارواح في الابدان
ليس من ساكن تحرّك الا ... انت حركته خفيّ المكان

ويعلق الدكتور زكي مبارك على هذه الابيات بقوله : ومعنى ذلك انه يقول بوحدة الوجود بين المحب والمحبوب فهو يجعل الصلة بينه وبين اصفيائه كالصلة بينه وبين واجب الوجود ، والواقع ان الحلاج احب الله الى حد الفناء ، وقصته في حب الله قصة محزنة فقد تنقل من ارض الى ارض ، وتشكل في مخبره ومنظره اشكالا مختلفات فكان له في كل ارض حال ، ومع كل قوم رأي ولقي في سبيل محبوبه افظع ضروب الشقاء . قضى السنين الطوال وهو يشاهد طيف الحبيب ، الحبيب الممنوع الذي يراه في كل موجود ولا يظفر منه بشيء غير الوجد والحنين . كان المسكين يحب حبيباً لا يُدرك ولا يُنال ، كان يحب النور الذي يُغشي الابصار والقلوب كان يحب الله والله اكبر من ان يحب لانه فوق الاوهام والظنون . كانت للحلاج مطامع فيمن يحب فلما اخرج من سجنه ليُقتل عرف انه كان مخبول المطامع وأنشد :

طلبت المستقر بكل ارض ... فلم ار لي بأرض مستقرا
أطعتُ مطامعي فاستعبدتني ... ولو أني قنعت لكنت حرا

ثم طافت بنفسه اطياف هواه واطياف بلواه فصاح :

نـديمي غير منسوب ... الى شيء من الحيف
سقـاني ثم حيـاني ... كفعل الضيف بالضيف
فلمـا دارت الكـاس ... دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح ... مع التنين في الصيف

وبذلك اعترف الحلاج انه جهل قدر نفسه حين استجـاز ان يكون نديماً لذلك المحبوب القهار ، الذي أغرق الاولين والآخرين في لجج من الهدى والضلال . وكانت النكبة كافية لان يصدف

المحب عمن يحب ولكن الحلاج كان من الاوفياء فتشبث بمحبوبه وهو يقول : يا معين الفناء عليّ ، أعني على الفناء . وقد استجاب المحبوب فرحم المحب من الفناء. وكذلك بقيت ذكرى الحلاج على كر الزمان .

ننتقل بعد هذا الى ركن ثان من اركان جنة الصوفية وذلكم هو ركن الحكيم الالهي الشيخ الاكبر محي الدين محمد بن علي الطائي الحاتمي الاندلسي المعروف بابن عربي . ولد سنة ستين وخمسمائة بمرسية من بلاد الاندلس فتعلم بها ثم انتقل الى اشبيلية فتعلم بها ثم رحل الى المشرق فابتدأ بمصر فالحجاز واقام فيه زماناً ثم دخل بغداد فالموصل فآسيا الصغرى ثم استقر في دمشق الى ان مات سنة ثمان وثلاثين وستمائة وكانت وفاته في دار نسيبه قاضي دمشق محي الدين بن الزكي ودفن بمقبرة بني الزكي ثم بنى فوقه السلطان سليم الاول حينما دخل دمشق فاتحاً سنة اثنين وعشرين وتسعمائة الجامع الضخم المعروف به . والناس يختلفون فيه على ثلاثة مذاهب مثل الحلاج فمنهم طائفة تقول بكفره لمخالفة كلامه للشريعة ومنهم المؤرخ السخاوي والمتكلمان التفتازاني وعلي القاري. وطائفة تقول انه من كبار المجتهدين والاولياء ومنهم المجد الفيروزابادي والشعراني والنابلسي وابن كمال باشا . وثالثة تقول انه ولي ولكن يحرم النظر في كتبه ومنهم السيوطي والحصكفي . قضى محي الدين عمره الطويل في العلم والتعليم والمجاهدة والتفكير والتأليف وقد بلغ عدد تآليفه نحواً من خمسين ومائتي كتاب اشهرها الفتوحات المكية وفصوص الحكم . اما الفتوحات فكتاب ضخم في اربع مجلدات حوت كثيراً من آداب الصوفية وعلمهم وهو كما يقول الدكتور زكي مبارك في المقارنة بينه وبين الاحياء للغزالي : ان الاحياء جلا من التصوف ناحيته الروحية، اما الفتوحات فقد جلا من التصوف ناحيته العقلية . ويمكن الحكم بان ابن عربي كان أصلب عوداً من الغزالي فالغزالي ألف كتابه وهو ممعود اما ابن عربي فألف كتابه وهو في حيوية قوية ، حيوية في الجسم وحيوية في العقل ومن اجل هذا تراه يفترع الاخطار افتراع الفحول وان كان لم يفرغ من كتابه الا قبل موته بثلاث سنين ، وللقوة الشخصية اثر في الحياة الادبية . والادباء لا يخدمون لغتهم بالبيان وحده وانما يخدمونها بالبيان المقتحم الذي يوقظ المشاعر والعقول . ويمكن ايضاً ان نقول ان كتاب الاحياء يصلح لكل قارىء ، اما كتاب الفتوحات فيتسامى على اوساط القراء فهو لون من الارستقراطية العقلية لانه يعز على من يرومه من سواد الناس ويطول على من لم تؤهله ثقافته الى المشاركة في مصاولة العقول . اما فصوص الحكم فهو كتاب صغير في سبع وعشرين باباً ، سمي كل باب منه فصاً ونسبه الى احد الانبياء السبع والعشرين . والكتاب من أدق كتب الصوفية عبارة وأعوصها معاني لا يقل عمق افكار وحزونة عبارة عن الفتوحات على ان شرح القاشاني قد سهل بعض مغلقاته ولكنه ظل على كل حال صعب الفهم الا عمن أوتي نصيباً وافراً من العقل والفلسفة والمعرفة الصوفية. والكتاب ينتظم اكثرحجج ابن عربي في وحدة الوجود . ولابن عربي كتب ثلاثة اخرى يتجلى فيها نثره وهي الكتب التي نشرها المستشرق الالماني Nyberg واولها كتاب انشاء الدوائر وهو كتاب ادبي فلسفي اتخذ فيه العلم وبخاصة الهندسة وسيلة الى معرفة اسرار الكون وخالقه وبيان مرتبة الانسان فيه، وثانيها كتاب عقلة المستوفز وهو كتاب لطيف بحث فيه عن العقل والعرش والافلاك والدنيا وعناصرها والانسان ونشأته بحثاً فلسفياً عميقاً ، بلغة رشيقة سهلة . وثالثها كتاب التدبيرات الالهية في اصلاح المملكة الانسانية وهو كتاب غريب في بابه يدل على سعة ملكة ابن عربي الادبية وخصب ملكته الخيالية ، فقد شبه فيه ابن عربي جسم الانسان بمدينة عظيمة لها خليفة وقاض ووزير وموظفون قسمت عليهم الاعمال ؛ فطائفة تقوم باعمالها خير قيام وطائفة تهمل بعض واجباتها وثالثة تهملها جميعاً . وقد وفق المؤلف فيه الى معالجة كثير من القضايا النفسية والتربوية معالجة صحيحة وكم كنت اود لو اسرد طرفاً من نثره البليغ القوي في هذا الكتاب ولكني اكتفي بان أسرد عليكم عناوين بعض فصوله وجزءاً من مقدمته فانها تكشف بعض النواحي ولعلها تحفز بعضكم الى مطالعته . (الفصل السادس) في اقامة مدينة الجسم وتفاصيلها . (الفصل الثالث) في قاضي المدينة وصفاته . (الفصل السابع) في معرفة الوزير وصفاته . (الفصل التاسع) في الكاتب وصفاته وكتبه. (الفصل العاشر) في المسددين والعاملين واصحاب الجبايات والخراج . (الحادي عشر) في رفع الجبايات الى الحضرة ووقوف الامام عليها ورفعها الى الملك الحق . (الثاني عشر) في السفراء والرسل الموجهين الى الثائرين بمدينة البدن. (الثالث عشر) في القواد والاجناد وسياستهم. (الرابع عشر) في سياسة الحروب والمكائد وترتيب الجيوش. (الخامس عشر) في السر الذي يتغلب به اعداء هذه المدينة . (السابع عشر) في ترتيب الغذاء الجسماني

والروحاني على فصول السنة لاقامة هذا الملك . واليكم قطعة من مقدمة هذا الكتاب تبين لكم نثر ابن عربي: التصوف – صافاك الله – امره عجيب ، وشأنه غريب ، وسره لطيف ، ليس يُمنح الا لصاحب عناية وقدم صدق ، اعلم شرح الله سبحانه صدرك انمبنى هذا الطريق على التسليم والتصديق فاياك وطلب الدليل من خارج فتفتقر الى المعارج واطلبه من ذاتك لذاتك تجد الحق في ذاتك ، أرأيت لما ثبتت نبوّة رسول الله (ص) واستقر في نفوس العقلاء انه ينطق عن الله لاعن هوى نفسه كيف دخلوا في رق الانقياد والتسليم ولم يسألوا ما الدليل فافترش ، ايها الطالب الحبيب بساط التسليم ، واخرج بالحرية عن رق الانكار ، واقعد على كرسي الفكر ، وافرغ عليك حلة المجاهدة واجعل على رأسك تاج الموافقة . هذا نمط من نثر ابن عربي وهو كما ترون نثر متين في معانيه ، قوي في افكاره اما اساوبه فسهل لا يهتم فيه باللفظ وهو في نثره على طريقة الصوفية القدماء الذين جعلوا شعارهم : حذار ان تعرب الالسن وتلحن القلوب . وابن عربي ممن قد يلحن لسانه ولكن معانيه كلها معربة صحيحة . اما شعره فهو الشعر الصوفي الخالص المغرق في الرمزية وهو مقبول تارة لجودة نظمه ، مكروه اخرى لسوء تركيبه . ومن شعره الجيد وقد سمعتها من الاستاذ المغربي :

لو أنها برزت لاشمط راهب فاق العباد عبادة لو أنها
واتت لتطلب منه ماخلقت له متذكراً فهي المسيح لماانتهى

فهل رأيتم أجود من هذين رقة ، الا ابيات النابغة التي استعان بها ابن عربي واولها :

لو انها عرضت لاشمط راهب عبد الاله صرورة متعبد

ولكن معاني ابن عربي اسمى وأرفع من معاني النابغة . ومن جيد شعره قوله :

ليت شعري هل دروا أيّ قلب ملكوا
وفؤادي لو درى أيّ شعب سلكوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
حار ارباب الهوى في الهوى وارتبكوا

فهل رأيتم ارشق بحراً واعذب كلماً واحسن موسيقى وارق معنى من هذه الكلمات ؟ ثم انظروا معي الى قوله :

مرضي من مريضة الاجفان عللاني بذكرها عللاني
هفت الورق بالرياح وناحت شجو هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعوب تهادى من بنات الخدور بين الغواني
طلعت في العيان شمساً فلما أفلت اشرقت بافق جناني
بابي ثم بي غزال ربيب يرتعي بين اضلعي في امان

وقوله وفيه خيال رائع :

ذبت شوقاً ووجداً في محبتكم فآه من طول شوقي آه من كمدي
يدي وضعت على قلبي مخافة ان ينشق صدري لما خانني جلدي
ما زال يرفعها طوراً ويخفضها حتى وضعت يدي الاخرى تشد يدي

ومن شعره الرفيع في معناه العادي في قالبه ومفرداته قوله :

نحن حزب الله من يلحقنا جدنا جد ، وجد هزلنا
فمتى ادرككم فينا عمى سائلوا عنا الذي يعرفنا
ذاكم الله عظيم جده يمنح الاسرار من شاء بنا
ما أما كنا رجالا هتفت بهم الورق بدوحات منى
فرمينا جمرة الكون بها فرُمينا بريشات القنا
وازدلفنا زُلفة الجمع فهل أسمع القوم مناجاة المنى
يا عبادي هل رأيتم ما أرى يا عبادي هل بنا انتم انا

فهو كما ترون شعر حسن في معناه يرمي الى مقاصد سامية ولكنه ضعيف في اسلوبه ، ركيك في قالبه ؛ وكأن ابن عربي اراد ان يَفْصُح قلبه وان سخف لفظه .

وبعد فقد سردت لكم طرفاً من الادب الفطري والادب الرمزي فلأنته بكم الى النتيجة التي استفادها الادب العربي من الادب الصوفي . وارى انه يمكن حصرها في النقاط الآتية :

١ – غنيت اللغة العربية بالمفردات الصوفية غنى كبيراً ولا سيما بكتب ابن عربي وشعره ، فقد تفرد بتعبيرات واصطلاحات لان الرجل كان يعيش في جو خلقه بنفسه وكانت له اقتحامات عقلية ولغوية تضيفه الى المبتكرين في عالم الفكر والبيان ، يضاف الى هذا ما صنعه في اذاعة الثقافة الصوفية فقد هضم كل ما قرأ ووعى كل ما سمع وراح يهدر كهدير الفحل في لغة قوية لا يعيبها غير ما كان يقصد اليه احياناً من الغموض ولنسجل انه راض اللغة على الجري في شعاب مجهولة وانطلق يتحدث عن فروض غيبية جلاها قلمه في معارض شائقة فاصبحت وكأنها من الحديث المألوف .

٢ – افاد التراث الصوفي الادب العربي كثيراً من الاخيلة الشائقة والتعبيرات الدقيقة والافكار الجميلة التي تردان بها كتب الصوفية

من نثرية وشعرية وان لادباء الصوفية ممن ذكرنا وغيرهم شعراً ونثراً هو اجل بكثير من نثر ابن العميد والصاحب والقاضي الفاضل وشعر ابن زيدون وابي فراس وابن المعتز وغيرهم .

٣ – أحدث الادب الصوفي انواعاً جديدة من القول من ذلك المدائح النبوية ، وهي نوع من الادب الرفيع ومن ذلك ادب مناجاة الله وادب الاوراد والتسبيحات ، ومن اجود هذا الصنف التائيات كتائيتي ابن الفارض المشهورتين وتائية ابن عربي الرقيقة في معانيها وتائيات اخرى كثيرة . ومن اجلها تائية مخطوطة بمكتبة الاستاذ الجليل المغربي لشاعر صوفي بارع يستتر باسم عامر بن عامر البصري وهي تائية رائعة قرأتهـا مع الاستاذ فاذا هي من اجود الادب العربي الصوفي ولعل الاستاذ يتم دراسته عنها وينشرها فيفيد الادب فائدة جلى .

٤ – في الادب الصوفي نواح من الادب الرمزي كالذي رأيتم في شعر الحلاج وابن عربي وفي شعر ابن الفارض واليافعي والنابلسي وقد يزعم بعض الناس ان هذا الادب لا خير فيه لغموضه فانا اقول ان هذا الغموض قد يفعل في النفوس ما لا يفعله الادب الصريح فهو كالحسن البارع كلما اطلت النظر فيه تكشفت لك معالم جديدة من الجمال .

٥ – وجه الصوفيون الادب توجيهاً خلقياً اصلاحياً واقصوه عن المديح الكاذب والشعر المتخنث وما الى ذلك من ضروب الشعر العربي المنحطة في معانيها .

٦ – اوجد الصوفيون ابحاثاً وكتباً غذت المكتبة العربية ورفعت من قيمتها نذكر من تلك الكتب الكثيرة كتاب الزهد من عيون الاخبار لابن قتيبة ، وفصول الزهد والنساك من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري ومحاضرات الابرار لابن عربي وسراج الملوك للطرطوشي وغيرها .

اما بعد فان السماع عن الصوفية وادبهم شيء والانكباب على دراستهم ومطالعتهم شيء آخر ، وكم من فرق بين ان يعلم الانسان تعريف الشبع والجوع وبين ان يكون جوعان او شبعان حقاً . فانا ادعوكم الى مـائدة الادب الصوفي الروحية التي سيجد الكثير منكم فيها سلوة وعزاء ومتعة ونشاطاً . *

اسعد طلس – دمشق

* محاضرة ألقيت في قاعة المجمع العلمي العربي بدمشق

فراق ·

حبيبي ، متى نلتقي
فـاني صبـاحَ مساءْ
أسيرُ وكلي رجـاءْ
الى المفرقِ

ومهما يجنّ القـدَرْ
ويفرش دربي ظـلامْ
ففي جـانبيّ غرامْ
كضوء القمر

فيـا عينُ لا تدمعي
رويـداً فما قريبْ
يعود اليّ الحبيب
ويبقى معي

انا لك فجرٌ أطلّ
وأدعيةٌ تُستجـابْ
وعهـدٌ سخيّ الشبابْ
يضمّ الازلْ

بعود ويبقى معي
يبرّد مني الغليلْ
فوطء البعـاد ثقيلْ
على اضلعي

ولولاك كان الزمنْ
سحـابةَ صيف تزولْ
ونجماً عـلاه الافولْ
ودنيا شجنْ

ولي مأملٌ في الغـدِ
أهزّ به الكائنـاتْ
واجني ثمـار الحياةْ
بملء يدي ·

تعـالَ ، ولا تُسرعِ
أخافُ عثار الطريق !·
فمـا في الحياة صديقْ
وان يدّعي ··

يوسف الخال

اللــــحن الكئيـــب

مسرحية بقلم خليل هنداوي

« وابلغ ما في الحياة الالم » — شوقي



الاشخاص :

موزار — الموسيقي المعروف ١٧٥٦ — ١٧٩١
كونستانس — زوج موزار
الزائر المجهول — رسول شخص مجهول
ماري — شقيقة كونستانس
خادم

•

المشهد الاول

موزار — كونستانس

موزار (موسيقي في ريق شبابه لكن خطوط الهموم تحدد وجهه . اضطراب على عينيه وقلق في رأسه) .

موزار — (يُرى جالساً في غرفته الخاصة وهو يداعب قيثارته وحده)

والآن الى اين وصلنا ؟ وبأي لحن تريدين ان تجودي ؟ أتظنين ان نفوس الناس تفهم ما ستنقلين عن نفسي ؟ أحقاً ان في اوتارك حياة ؟ أحقاً انك لا ترنّين إلاّ باحساس ؟ انك كل حياة لا تتفجر الا اذا تألمت ... رفيقتي في الحياة انت ...

أقدرت لي الحياة ان احمل بين اناملي خشبة مشدودة الخيوط؟ انقلها اينما اروح ، وازعم للناس بعد ذلك انها تعبر عن افراحي وآلامي ! وما خطب الناس بافراحي وآلامي ، بل ما خطب نفسي بافراحهم وآلامهم ؟.

يفتش الناس عن الهرب من الآلام ، والفنان وحده يفتش عن الألم ، لانه لا يبدع الا بالالم ، الفنان وحده يبارك الالم لانه يفجر من مواهب نفسه .

قد التقينا هنا ايتها القيثارة ... وربما تفضلين على انامي انامل جامدة تترك روحك صامتة ولا تحملك على الرنين ...

انت عبءٌ ثقيل ، او انا عليك عبءٌ ثقيل ... انت ...

كونستانس (تدخل كونستانس وهي ذات طلعة بهية مرحة النفس ، في عينها شعاع متألق)

موزار .. موزار ! رفقاً بنفسك . لقد اسقمتك هذه الشاحبة العليلة ، واستأثرت بكل ثواني حياتك .. أرخ اوتارها واهمل اسرارها .

موزار — شاحبة عليلة .. نعم ! شاحبة بقدار ما سهرت مع العاشقين . وعليلة بقدار ما ناحت مع المعذبين .

كونستانس — ما نعمل اليوم ! وقد علمت ان صاحب البيت ما زال يلح في اخراجنا اذا لم نوف له الأجر . والمال ضئيل بين ايدينا والحياة تكاد تخنقنا ...

موزار — أيشكو الفنان ضيق الحياة ؟ أيخشى الفنان ان يخرج طريداً من بيته ، وبيته الفضاء كله ؟

كونستانس — وما لنا اذاً الا ان نخرج ونجوع ونعرى ..

موزار — بل يا حبذا الخروج والجوع والعري في الفن !

كونستانس — أجائع يفخر بجوعه ؟ أعاري يكسو عاريا ؟

موزار — انك تزدرين هذه (الآلهة) القائمة معي (مشيراً الى القيثارة) ان فؤادك الكبير اخذ ينقبض في المدة الأخيرة . ونفسك التي كانت لا تجنح الا مع امواج الفن بدأت المادة تجرها اليها ...

كونستانس — ولكن ما هي الغاية التي وصلت اليها ؟ أتقول الشهرة؟ وقد رأيت ان الشهرة حطمتك في كل مكان . وخصومك الفنانون استطاعوا ان يعيدوك مفرداً بائساً ! أتقول المال ؟ وانت لا تملك منه ما يؤمن لك سكناك . أتقول ماذا ؟

موزار — ويحكِ يا كونستانس أتوقنين بان موزار يعتقد بالفن من اجل الشهرة ؟ أتظنين ان رغبة الظهور هي التي تسوقني ؟ ان

امثال هؤلاء يموت فنهم حين يموتون ، اما الفن الحقيقي فهو قرين الشمس دائماً ، لان الاجيال مكلفة بصيانته .

كونستانس – ذلك رأي كل فنان في نفسه . لم اجد فناناً يقول يوماً غير ما قلت .

موزار – ما كان اخيب املي يوم عرفتك ... لقد فكرت في ان تكوني مأوى لفني حين لا اجد له مأوى . اما الآن فاني مضطر الى البحث عنك في كل مكان . لقد كنت قريبة مني ، تسمعين ندائي اذا ناديتك، وتفهمين همسي اذا وشوشتك . واليوم كم اراك بعيدة ! كم ارى وهاداً سحيقة تحجبك عني ! بل كم تتخطف عيني المسافات التي تفصل ما بيننا .

انك دمية فنية ابدعك فنان كبير ايتها المرأة ، ولكن ما عسى تفهم الدمية من رونق فنها .

كونستانس – انك لا تبرح عالمي اينما ذهبت ، وعلى صدري يجتمع فنك كله . ما قيمة اوتارك اذا لم يناج قلبي ؟ وما قيمة الحانك اذا لم ترتلها في معبدي . المرأة دمية فنية ولكن لا فن يبدع بدونها .

موزار – وهم باطل .. ابدع الله صدرها ، ولكني انا ابدعت قلبها . خلقها الله جامدة باردة . وانا نفخت فيها الحرارة والحركة لاسند اليها رأسي .. من انت لولا فني ؟ من انت لولا قيثارتي ؟

كونستانس – (بندم ورعشة)

انك كبير في عيني ! قربني منك ! انا قريبة منك ولست بعيدة . ولكني اخاف ان افلت في مزلق عميق . شدني اليك ! اضغط على اوتار قلبي كما تضغط على اوتارها ، لعلي ارن باللحن الذي تريد .

انا لحن يبقى هائماً اذا لم تحمله الى هذه الاوتار ولكن .. ما اقل الناس الذين يعتقدون مثلك !

موزار – ولكن ألسنا سعداء في اعتقادنا ؟ وهل يمكننا ان نحمل الناس كلهم على اعتقاد واحد ؟ (يسمع وقع اقدام ، ثم استئذان رجل بالدخول) من القادم ؟

القادم – جئت اطلب مقابلة موزار .

موزار – وما عسى يشغلك منه ؟ هل انت فنان ؟

القادم – لم تشأ السماء ان تمنحني هذه النعمة ؟

موزار – هذه النعمة! واذاً ما مقابلتك لمن أعطي هذه النعمة ؟

القادم – اشأن يخصه وحده .

موزار – أتريد عزلة مطلقة ؟

القادم – اذا شئت ذلك .

موزار – لك ذلك اذا شاءت كونستانس .

كونستانس – اتركتكما وحدكما .

القادم – جئت بامر لا اعلم توفيقي فيه ، شرط علي فيه صاحبه ان يبقى اسمه مجهولا .

موزار – وما هو هذا الامر . ان في كلامك ابهاماً يستهويني .

القادم – هذا المجهول يطلب الى موزار ان يصنع له لحناً كئيباً ، وهو يبذل ما يريد الفنان .

موزار – أتشترى الكآبة بالمال؟ أهناك من يبحث عن الكآبة؟ أهناك من يطلبها بالمال؟ طلب غريب يا صاح؟ لان عهدي بالناس ان يشتروا افراحهم وملذاتهم بالمال اما الكآبة ...

ولكن غاب عن هؤلاء اننا نحن نفجر الالم في انفسنا .

القادم – ولكني لم اجيء لاسمع رأي الفنان في الالم وفي شعور الناس .

موزار

موزار – ولكن أليس بامكانك ان تعرض عليّ ملامح هذه الشخصية المجهولة ؟ لان هذه الملامح قد تفيدني في استيحاء الحاني . أمرأة هذه المجهولة ام غانية ؟ أطامحة ام بائسة ؟ أمرحة ملّت حياة المرح فاحتاجت الى البكاء ؟ أم باكية تريد الاشتفاء .

القادم – محاولات فاشلة لان الشرط الوحيد الا تحاول معرفة هذا المجهول .

موزار – لا استطيع استجابة مثل هذا الطلب ، لان مادة الالم لا تباع ولا تشرى . ألمنا من انفسنا ولانفسنا .

القادم – ولم لا يكون اللحن لنفسك ؟

موزار ـ (كمن تبرق على عينيه خاطرة) كلمة مصيبة . . .

كونستانس . . كونستانس .

لقد اخرجتني (له) من هذا المأزق . (تدخل كونستانس)

كونستانس ـ أفي الامر ما يحتاج الى هذه العزلة ؟

موزار ـ أعرض عليها ما جئت به .

القادم ـ كلفني مجهول ان اطلب الى موزار تلحين قطعة كنيسة لقاء اجر يدفع نصفه الآن والنصف الآخر يدفع عند النهاية مع هدية ثمينة .

كونستانس ـ (دهشة) أمر حسن ولكن الا علم لك بهذا المجهول ؟

القادم ـ انه يصر على ان يبقى مجهولا .

كونستانس ـ ولكن أليس من حقنا ان نعرف شيئاً عنه ؟

القادم ـ ذلك سر لا أقبل بازاحة الغطاء عنه .

كونستانس ـ أرجل هو أم فتاة ؟

القادم ـ لا تحاولي شيئاً يا سيدتي !

كونستانس ـ ماذا قلت يا موزار ! هل انت متأهب لاستجابة الطلب .

موزار ـ أخشى أن تكون مكيدة في الامر .

القادم ـ أترك لكما الجواب الى مساء هذه الليلة (يودعهما)

كونستانس ـ موزار ! أفي الفن مكيدة ؟ أيصل الألم في النفس الانسانية الى ان تشتري الالم .

موزار — أخشى ان يكون وراء هـذا المجهول قلب عاشق حطمه اليأس .

كونستانس — ولم لا يكون وراءه ، قلب عاشقة متوقدة الليالي ؟

موزار — ألا تجدين في عملي احساناً الى هذه النفس مهما كانت ؟

كونستانس — قل له ، يا موزار ، رضيت .

موزار ـ (يقبلها) كأنك في قلب موزار . . .

المشهد الثاني

(موزار شاحب اللون ، هزيل البدن ، امامه اوراق موسيقية . منكب على قيثارته ، وقد اعياه التعب قليلاً)

موزار ـ أف ما اسرع تلبية الاحزان اذا ناديتها ، كأنما العالم كله مركب على اسس الاحزان .

كونستانس ـ (تدخل كونستانس) أتعلم اين انت الآن من الليل ؟

موزار ـ (باسماً) أتقولين لي انك ادخلت معك الفجر ياعزيزتي؟

كونستانس — قلت لك مراراً بألا تشتغل بهذا اللحن المشئوم في الليل ، لان الليل حزين بذاته .

موزار — ولم لا تقولين ان الليل ترقص الملذات نفسهـا على احضانه .

كونستانس — ارى ان تترك الآن العمل .

موزار ـ ولكني الآن في ساعة إلهـام ، ومثل هذه الساعة ومضات في حياة الفنان .

كونستانس ـ ولكنك اسقمت بدنك وقتلت نفسك . رفقاً بقلبك يا موزار . انك تكلفه الصعود كثيراً .

موزار ـ حياة الفنان وثبات خطرة فوق القمم ، نحن لا نمشي كثيراً ، ولكننا نثب كثيراً ، وانا الآن في وثبة من وثباتي الكبرى .

كونستانس ـ انني امسيت قلقة خائفة عليك ، وقد علمت ان سفرتك الاخيرة الى «براغ» كانت شديدة الوطأة على قلبك . وان الاوبرا التي ألفتها في تتويج الامبراطور (ليوبولد) قد انهكت كل قواك المولدة ، وارخت عزائمك المبدعة .

موزار ـ أسمعت شيئاً في النوادي جديداً عنها ؟

كونستانس ـ انهم يقولون ، انك قذفتها سهماً نافذاً في افئدة خصومك الذين لا يحبون ان يؤمنوا بعبقريتك .

موزار ـ آه خصومي! ومتى كانت حياتي خالية من الخصومات! ذهب خصومي ورائي ليكفنوا عبقريتي ، ويدفنوا موزار حياً . . لكن موزار ينبوع لا يغيض ماؤه . انهم عجزوا عن مخاصمتي في الفن ، فلم يتورعوا عن قتلي بالسم .

كونستانس ـ ماذا تقول ؟ السم !

موزار ـ احس فتور السم في اعصابي . احس تخدير السم في دمي . حقيقة كتمتها عنك . لن يكتب لجسدي بعد اليوم ان يجاهد طويلاً .

كونستانس ـ أي سم تزعم ؟ من قال ذلك ؟

موزار ـ قلبي الفتي الذي يخفق خفوق الموت .

كونستانس ـ اعتقادك باطل يا موزار .

موزار ـ لقد سمموني بغير شك ، وليس في الامكان ان اتخلص من هذا الاعتقاد .

كونستانس – السم الذي ينهش قلبك هو سم الفن . اهجر هذه القيثارة زمناً واترك هذا اللحن فاني لا اراك قادراً على اتمامه في هذه الحالة .

موزار – ولكن دعيني اكتبه وانجزه ، لاني نسيت اني اكتبه للزائر المجهول ... هذا لحن حزين أكتبه لنفسي .

كونستانس – وهذا ما يقتلك يا موزار ! انك لا تقدر ان تكون شيئاً ، وفنك شيئاً آخر .

موزار – أفي هذا ازدواج ؟ انا وفني شيء واحد . لا احب ان اسمع منك هذه الفكرة التي رددتها مراراً . انا لا يمكنني ان اتجرد من الحاني .. ان الحاني تحيا في نفسي كما ان نفسي تحيا في الحاني . انا لولا الحزن الذي يفيض على نفسي لما استطعت ان اكتب هذا اللحن .

كونستانس – ولكن اذا لم ترحم نفسك فارحم العالم الذي هو في حاجة الى فيض عبقريتك ... انه يريد ان يسمع بعد هذا اللحن الحاناً أتظن انك تفرغ كل ما تريده انت في هذا اللحن ثم تسكت ؟

موزار – ويك ! أتظنين ان للابداع عمراً محدوداً ؟ او ان المبدع يطلب اليه ان يتكلم طول حياته .. ان الحياة تقدر للمبدع لحظة واحدة لا يعلمها هو . يقول فيها كل ما يريد ان يقول . قد يكون هذا اللحن آخر ما اقول . وقد يكون لي بعد هذا اللحن ألحان .. دعيني الآن ! .. انني احس انني في ساعة فيض و إلهام . انني اشعر بان اوتار يدي مشدودة باوتار قلبي ...

كونستانس – لا يمكنني ان اغادرك مفرداً ، لان العبقرية نفسها تناديني بان انقذك من بين ذراعيها ... تريد ان تخنقك وفي الوقت ذاته ارسلتني لكي انقذك .. !

موزار – ما اسمى شعورك يا عزيزتي ! لنترك الليل اذاً يمر وحده

كونستانس – عدني قبل ان تخرج الى الفجر بان تترك القيثارة !

موزار – ولكنك انت قيثارة بين يدي ، او تارك لا عدد لها ! والحانك ...

كونستانس – اما هذه القيثارة فضع يدك عليها دائماً ... !

(يمشيان)

المشهد الثالث

(في قلب الليل ، غرفة متشحة بالنور الباهت ، يُرى موزار ينهض رويداً رويداً وقد بدت ملامح وجهه الرقيق على النور .. يمشي خطوة ويلتفت وراءه حذراً ... حتى ينتقل الى حجرة ثانية ينير الشموع فتبدو قيثارته الشاحبة واوراقه الموسيقية على درج عال ..)

موزار – مسكينة كونستانس ! انها لا تدري انني اغافلها عن نفسها كل ليلة لاعود الى اتمام هذا اللحن الكئيب . انها كثيرة الاشفاق على قلبي .. ! على قلبي المريض .

(يأخذ قيثارته ويبدأ العزف) هذا لحن يشق اجواء نفسي ويصل الى عمقها ! ربنا ارسلت القدرة هذا الزائر المجهول ليفتح لنفسي هذا الافق المجهول ... قل لي من انت ايها المجهول ؟

قل لي من انت ايها الذي اناجيه على تمتمة هذه الاوتار ...

أتمثلك عاشقاً تطوف من مكان الى مكان ...

تريد ان تريح النفس بهذا اللحن الحزين .. !

بل اتمثلك عاشقة هائمة .. ضاق صدرها بالحب ، فطلب اللحن الحزين ليهدىء ثورة نفسها .

ولكن لمَ لا يكون هذا المجهول صاحب مجد مغلوب ! ولكن لمَ لا يكون هذا المجهول هذا الكون الهائم كله على غير غاية .. ؟

(يشتد العزف) اراه لحناً لا يخاطب الا نفسي ، في نفسي خطرات



المنزل الذي ولد فيه موزار في سالزبورغ (كما يبدو في اوائل القرن التاسع عشر)

واسرار تستثيرها هذه الاوتار !

(يشتد العزف) (تستيقظ كونستانس وتهب مذعورة)

كونستانس — موزار لقد اقلقت كل شيء . هذه الليلة . . (تحدق في وجهه الذي اختلفت ملامحه) موزار خل عنك القيثارة! (تتناولها منه وهو يسقط مكدوداً والعرق يتسايل على جبينه) اتكىء عليّ . . ! (يخرجان الى الغرفة الاولى) ألم اقل لك ان هذا اللحن يأكل من نفسك!

موزار — ولذلك سيبقى خالداً (يجلسان على السرير)

كونستانس — نم امامي الآن ! اغمض عينيك حتى لا تبصر شيئاً . (تحيطه بذراعيها) . موزار — توشكين ان تخنقيني بحبك ينبغي ان تساعديني على اتمام ما انا فيه .

كونستانس — هذا لحن لن تشتغل به بعد اليوم . لان صاحبه لم يشتر لحناً وانما اشترى نفساً . . .

موزار — ولكني اقول انه هداني الى نفسي . . اللحن الحزين مرحلة ضرورية في مراحل كل حياة، لانه صوت النفس في جهادها ! لكل منا طموحه الذي يمشي ويفشل وينتهي باللحن الحزين، لكل منا هذا اللحن الحزين الذي يسيطر على نفسه . وكل منا يغني لحنه في هذه الحياة . كونستانس — امتزاجك بالفن لهذه الدرجة وبال عليك .

موزار — يجب على موزار ان يتمم هـذا اللحن، لانه نشيد مأساة الحياة ! . كونستانس — انك خارج الآن من نوبة عصبية، حاول ان تهدئ اعصابك ! ارى عرقاً يتسايل على جبينك وملامح غريبة تظهر على وجهك . أبك شيء . ؟ (تلمسه) انك حار الملمس !

موزار — يجدر بهذا اللحن ان ينتهي بالطمأنينة والهدوء . شأن السفينة التي تطاردها العاصفة ثم تغفو اشلاؤها على الشاطىء . !

كونستانس — فكر بي الآن . موزار — قريباً تصل السفينة التي حطمت جوانبها العاصفة الى الشاطىء !

المشهد الرابع

(كونستانس مع اختها ماري)

كونستانس — اراك جئت متخلفة ! .

ماري — أخرني ازدحام الناس في مأتم ابنة الامبراطور .

كونستانس — وهل ماتت ؟ لهفي على تلك المحاسن الغضة !

ماري — لقد عاشت كالزنبقة الوديعة وماتت كالزنبقة الوديعة .

كونستانس — اذكر تألق عينيها ورنين صوتها الفضي . ألم يكن بامكان الطب ان ينقذها ؟

ماري — يقولون : ان جميع الوسائل ذهبت عبثاً ، لان داءها كان داءً باطناً . كانت تذوب بهجتها يوماً بعد يوم، وتستحيل الوانها الحادة الى الوان شفقية باهتة . وحسرة الناس فيها انهم لم يعلموا ما اوداها

موزار — (يسعل سعلات خفيفة) منادياً : يا كونستانس .

كونستانس — لقد استيقظ هيا بنا اليه . (تخرجان)

موزار — (لماري) لقد صنعت خيراً بحضورك فيجب ان تبقي هنا الليلة لتشهديني اموت . ماري — تموت !

موزار — ان طعم الموت على لساني . . انني اتذوقه بشفتي ! .

كونستانس — (تواري وجهها باكية) كلميه يا اختاه .

ماري — أيفكر مثلك بالموت، وهو الذي يهب الشباب والحياة للناس ! . موزار — وما عسى يعمل هنا من أتم عمله !

ماري — لكن الفن لا زال يرتقب ايامك .

موزار — لقد اعدت اليه ، الكلمة ، التي وضعها على فمي ! ولم يبق سواها ! اين كونستانس ؟ أريني نهاية اللحن الحزين (تذهب كونستانس) . ماري — ولِمَ لا تحيا لتعطي الناس اللحن السعيد؟

موزار — اللحن السعيد !! (يتناول منها الورقة ويقلب ناظره فيها بعد ان ينهض قليلاً) الآن استطيع القول : ان لحني الحزين قد انتهى ! . الخادم (حاملة بطاقة وصرة) مولاتي اعطاني رجل غريب هذه الامانة وانصرف . كونستانس — (تتناولها) آه بطاقة ومال

موزار — ممن هذه البطاقة اقرأيها عليّ .

كونستانس — «ان صاحب اللحن الحزين مات هذه الليلة ، وقد اوصى بان تعطى لتتمة الأجر . وانت حر باتمامه او الوقوف .

موزار (ينهض مغضباً) ولكن اللحن قد تم . . لا يمكن ان يموت قبل ان يسمع هذا اللحن ! ادركوه ! استوقفوه ! ليسمع اللحن كله

ماري وكونستانس (يركضان لتهدئة نفسه) هدىء عنك . ان هذا لا يزيدك الا خطراً !

موزار — تريد روحي ان تصعد على نغمات هـذا اللحن ! كونستانس ! اعزفيه على قيثـارتي ! اراك لا تبرحين مكانك ! هاتي قيثارتي ، لاتزال اناملي قادرة على شد اوتارها ! (كونستانس تمضي لتأتي بالقيثارة) . موزار — (قد انقلبت عيناه) صاحب اللحن الحزين يموت قبل ان يسمعه . (تدخل كونستانس) ألم اقل لك انني كنت اكتب هذا اللحن لنفسي ، لا لهذا المجهول . ولكن لا لا هذا ليس بلحنك ياموزار ولا بلحن احد وانما هو لحن الانسانية كلها . . اعزفي يا كونستانس . (تعزف وماري فوق رأسه ودموعه المترقرقة في عينيه واللحن يتصاعد قليلاً قليلاً)

ماري — قد انتهيت يا موزار ولكن لحنك الحزين لن ينتهي لانه لحن الانسانية كلها .

خليل هنداوي — حلب

الوجه والساق

بقلم امين الغريب

مسكين وجه النساء . فقد دالت دولته السامية بعدما طاول نجوم الثريا . ونزل كالسلاطين والقياصرة عن اريكته الرفيعة ، بعدما تحكم في عيون الرجال واستبد في قلوبهم بلا حرج ولا لوم ، من عهد آدم الى اليوم .

ومن لا يصدق فدونه الشوارع والمجالس . بل ، حيث برزت السيقان (*) للعيان ، في كل مكان عائدة شيئاً فشيئاً بالبدن . الى مثل عهد التين في جنة عدن .

اقيمت في كاليفورنيا مباراة لاختيار ملكة السيقان الجميلة فاشترط على الفتيات الاميركيات تستير الوجوه كيلا تؤثر في اعضاء لجنة المحكمين . كأنما بقي هناك للوجه اثر في زوايا الذاكرة من رأس ماله السابق . ولواء عزه الخافق . وهو على كل حال اثر بعد عين يستعطف النفوس الكريمة . ويثير فيها ذكريات قديمة .

لامبراطرة اليابان اطول سلسلة متوالية على عرش في التاريخ . على ان حكم وجه المرأة في قلوب الرجال اطول عهداً . ولكن ما الفائدة ولكل شيء على الارض نهاية . حتى وجه النساء المشرق الذي ملأ الدنيا رونقاً وبهاء انحط الآن من عالي مقامه . وخسف كالبدر ليل تمامه .

وقام عليه من انسبائه اثنان ، بل اثنتان ، هما الساقان ، في حرب اهلية حولت عنه النواظر بعدما كان ما كان ، في قديم الزمان . ولم تنفياه الى خارج الحدود ، بل اخفتاه على التوالي .

وما زال الزي القصير يتعالى بجلابيب النساء حتى بلغت منه القحة وقلة الذمام ، ان حكم على وجه المرأة الصبوح بالاعدام . فبعدما كانت الاقدام اللطيفة الناعمة الى عهد قريب - معدودة من الحرمات - تسترها الجوارب والذيول الضافية من كل جانب ، اذا بها تغير على الشوارع كجيش لجب وتندفع في المجالس كالسيل في الوادي . وتحني رؤوس الشبان بكاذب من الحشمة . وتلذع مهج الكهول بسهم من الاسف .

ولعل العلم في هذه المسألة ايضاً هو الجاني على العادات والتقاليد فقد كان الاطباء يشيرون بتقصير اذيال النساء كيلا تنقل السيدة باطراف ثوبها الضافية مكروبات الشارع العجاجة الى منزلها النقي . فانتبه الخياطون الى هذه الانذارات الصحية وهبوا الى اثواب النساء يعنون فيها جزاً وتقصيراً حتى بانت السيقان بكل مجدها للعيان .

اذكر منذ ٣٥ عاماً ان جريدة شيكاغو تريبيون صورت اقدام بعض السيدات الوجيهات وانشأت مقالة انيقة فاضلت فيها بين تلك الاقدام الرشيقة . والوجاهة في كل بلد على الاطلاق تبيح لادعيائها اموراً تقبلها الهيئة الاجتماعية ساكتة ، وهي تأباها على الناس العاديين . وقد زالت تلك الرسوم من ذهني برمتها بعد هذه السنين ولكني لم انس الضجة التي احدثها نشرها حتى في بلاد الحرية .

بل اذكر حادثاً أبعد من هذا في التاريخ . فعند اختراع الجوارب في اوربا حمل مخترعها كمية منها طويلة الساق الى ملكة اسبانيا طامعاً من جلالتها بعطف يدفع سيدات العاصمة الى الاقبال على تلك البضاعة فلما رأى الملك هذه الجوارب اغضبه طولها وامر بالتاجر الوقح ان يطرح ارضاً ويجلد مئة سوط على قفاه صارخاً فيه : «كيف جاز لك التفكير يا ابن اللعينة في ان لملكة اسبانيا سيقاناً»

لكن ذلك عهد مضى . وحتى في اميركا لم يكن احد منا يفكر منذ ٣٥ عاماً في امكان رؤيته ، يوماً في الشوارع قدماً انثوية ! اما اليوم فما قولك في هذه الثورة الواسعة ، بل الوليمة الحافلة المدعوة اليها جميع الانظار مجاناً من سيقان متنوعة ، تعرضها سيداتنا وآنساتنا كباراً وصغاراً يمنة ويسارا . هي طوفان عرمرم من ارجل النساء المختلفة الاشكال والاقيسة ، ما بين سمينة ونحيلة ، وقصيرة وطويلة ، وجميلة وغير جميلة ، نسي الرجال امامها ان النساء رؤساء وادمغة تستحق العناية فاطرقت نواظرهم عن الوجوه العالية ، الى الاقدام السافلة تدرسها وتستجليها . وتسكر عقولهم الصغيرة بجميا التفرس فيها .

كان الوجه حتى الآن اول وسيلة للتعارف بين الناس . اما وقد حلت السيقان محله عند النساء فهل نعرفهن بعد الآن من ارجلهن . وتغنينا المقايسات الهندسية الجافة عن لطف الملامح وانس العيون

(*) الساق في اللغة تمتد من العرقوب الى الركبة .

في التمييز بين غزالة واخرى ؟ على كل حال بذا قضت الايام تبديلا فيا صبراً جميلا .

على ان الزي القصير نشر مبـدأ المساواة بين النساء في جميع الطبقات الاجتماعية . فاذا نظرنا اليوم الى السيقان البارزة لم نعرف الفرق بين العزيزة والذليلة ، والصعلوكة والنبيلة ، والذكية والبلهاء والمهذبة والخرقاء . قد تفنن الخياطون والخياطات في تعرية كل ما يستطاع من جسوم الصبايا المهفهفة حتى صارت المجالس المتمدنة معارض للسيقان الانثوية كأنها حوانيت يعتمدون في اجتذاب انظار المتفرجين على اللحوم الملساء السمينة ، لا على العقول الراجحة الثمينة مع ان الجمال الخارجي صنارة تصيد القلوب ولا تغذيها . اما مـا يكبل العقول بسلاسل الحب المتينة فليس العيون ، ولا الوجنـات ولا السيقان . بل هو ذلك الجمال الساحر الفتان . جمال النفس وحلاوة اللسان .

وفوق هذا كله كيف ننسى وجوه النساء وتأثيرها في تاريخ التمدن . وما اوحت الى رجال الفن من آيات شعرية وتصويرية وموسيقية . فيا اسفاه على الحان ورسوم واقوال لطفت عواطف الاجيال . كم تغنى الشعراء بصباحة تلك الوجوه المشرقة كالشموس فاذا بها تتساقط من كل جانب ، كما تتهاوى في الظلام الكواكب وتعلو الارجل الجرداء على وجوه النساء . فسبحان رافع الجوزاء وباسط الغبراء ، يعلي ويخفض من يشاء .

وعلى ذكر الجزارين وحوانيتهم اقول اني دخلت واحداً منها في القاهرة يوماً ، فرأيت على الحائط صورة كبيرة لبقرة سمينة مقطعاً جسمها بخطوط فاصلة كالخارطة الجغرافية ، وعلى كل قسم رقم ، يدل على مبلغ جودة اللحم . فيعرف الشارون ، أي نوع يطلبون ، وأي سعر يدفعون . ومعلوم ان للفخذين اهمية كبرى بين اللحوم البقرية ، سواء للرنسبيف الافرنجي او للكبة اللبنانية . ولعمري لو علمت الابقار ذلك لفاخر بعضها بعضاً بلحم افخاذها ، لان الدماغ الذي يفخر به البشر ، لا قيمة له عند البقر .

هذا الدماغ المفكر العظيم . آية الله في خلقه . اعجوبة الاعاجيب البديعة . مسلط الانسان على عناصر الطبيعة . مخترع المعجزات العلمية . مخترع مدهشات المدنية . ليس ايضاً في حقيقة حاله سوى كتلة من اللحم . لكن الله سبحانه وضع فيه لا في سواه نفحة من روحه الحيّة . وبه لا بغيره ، سلّط الانسان على البرية . فالدماغ وحده اعظم مفخرة من مفاخر الانسان على كل مادة في الجماد والنبات والحيوان .

وما كل النساء متعلمات فالمرأة التي تجهل اهمية دماغها لا تفخر به طبعاً ، ولا تعرض للناس نتائجه البـاهرة . بل هي مسكينة ساذجة تفاخر الناظرين اليها ، بساقيها تحسبها كل رأس مالهـا ، في الدلالة على جمالهـا وتعرضها للانظار كأفضل اللحوم في حانوت الجزّار .

اما الدماغ الذي مكن المرأة من القيام دائماً وابداً بأجل الاعمال أي بتربية الرجال ،فلا قيمة له في معرض السيقان ، السائدة في هذا الزمان .

بيد اننا على يقين بتبدل كل هذا في وقت قريب . فكما دالت الوجوه وانحطت مراكز العقول ، في هذا العصر الحقير ، ستدول يوماً الارجل السخيفة ، ويعود الى المرأة حياؤها الفطري الذي كان في كل زمان ومكان اساس فضيلة البشر ، وركن اركان الشرف والكرامة . فتنفر من مفاخرة البهائم بحسن الكوارع والقوائم . وتسمو نفسها الابية من جديد عن الارض الى السماء ، وتتفق مع الله تعالى في تعظيم قيمة الوجه وتفضيله على سائر الجسد ، اذ جعله عزّ وجل على صورته ومثاله . فتستأنف في نهضتها الحديثة العناية كل العناية ، بجبينها الاغر ، وما ينطوي عليه من دماغ مفكر . وبقلبها الحساس الذي جعل من صدرها النبيل أشرف مائدة لتغذية الطفولة وأعلى مدرسة لتهذيب الانسانية .

وتطالب الرجل عند ذلك بحبها واحترامها واستحسانها ، لاجل القوة الكامنة في جبينها ولسانها . لا لاجل سيقانها .

امين الغريب

نطلب الاديب في مطلع كل شهر من المكاتب الشهيرة :

في لبنـان — سوريا — العراق — فلسطين — شرقي الاردن — مصر — السودان — الجزائر — تونس — مراكش طهران — اديس ابابا — لاغوس — ليا — ليوفولدفيل نوميـا — اكرا — باتورست — بوغوتا — نيودلهي جوهنسبرج — لندن — اوتاوا — نيويورك — وشنطن مكسيكو — لاهافان — ريو دي جانيرو — مونتيفيديو

ازيــاده

بقلم زكي المحاسني

استاذ الادب العربي في تجهيز دمشق

آزياده ، فتاة شرقية . ما ادري ، هل جاء بها بيير لوتي من عـالم ابداعه وهو قليل الاختراع لشخوص رواياته أو هي تركية حلوة من بنات الحياة عاشت على ضفاف البوسفور حيناً من الزمن كان فيه الكاتب الفرنسي العابر في تلك الربوع .

ومشى لوتي الهوينى بين ازقة سلانيك وهي ملتفة نابية او ملتوية ضيقه يسرح الطرف على الجدران العتيقة المبنية من عهـد السلطان سليم فما راعه من وراء خصاص وسدول الا وجه أشرق عليه بجمال جبار فجمد مكانه وكأن تياراً من الجذب اخذ عليه لبه وغلبه على امره . وجه قد لفّ جانب من شعر رأسه بمنديل حريري ابيض وزان مفرقه وردة . ولعل صاحبة هذه الطلعة البهية كانت اسيرة جدران وحبيسة بيت فلما رأت انساناً غريباً أطلت من الشباك عليه واخذت تعاينه حتى تواقع الطرفان وتقابل الوجهان فتبسمت هي وتبسم وسلم هو فردت السلام .

وابتدأت في ادب لوتي حياة حب وتاريخ قلب . وكان لوتي كبير الفؤاد في الرجال . فلقد احب النساء الكثيرات من كل الامم كان بحرياً من الضباط سياحاً في البلاد يكثر الالمـام بالعواصم . فعاش في الاستانة حيناً من الدهر ممتع النفس بالجمال التركي طرب الاذن بغام غزالاته ريان نشوان بالاحباب .

وشغفته حباً آزياده فعلمه هواها الجد في المودة فتأرقت شوقاً اليها عيناه دياجي طوالا . فلكم ظل مباعد ما بين الجفون حتى طلع المؤذن يدور بالمئذنة هاتفـاً بالله الاكبر . فكانت صورة العابد المنادي في هذا الغلس تسكب على بيان الاديب الفرنسي نضارة الاوصاف الشرقية .

أحب لوتي الاتراك في روح آزياده وفتحت هذه الحسناء عينه على اسرار المشرق فعب منها أروع اوصافه التي خلدت رواياته عن الشرق .

ما احلى تصويره لحلقة من حلقات الدراويش وهم فاتلون بالابراد المنفرجة مترنحون بالاذكار على قرع الدفوف وخفق الصنوج ونغمات الناي الحنون !

وكان لوتي اذا هدء هوى آزيادة ووجد في نفسه لاعج الوجد اليها وحائل البعاد منها أمعن في تركيّته فخلع لباس الفرنجة وتردى ثياب بني عثمان . فاذا هو قد حلّى رأسه بالطربوش ولفّ جسمه بجلباب فضفاض وانزل رجليه في سراويل منفوخة وسلك في قدميه بابوجاً أصفر وعقد الزنار وامسك بسبحة ذات طرّة واخذ يكتب قطعة صبوة عن غانيته الفتانة .

فاذا طلع النهار هام على وجهه بين اشجار السرو الباسقة على مقابر « ايوب » وهناك بين الاضرحة القائمة والاموات النـائمة اخذ يجول فيفكر بالوصال والقطيعة والحياة والموت . وكان يخيل اليه ان تلك البواسق المتناوحة نوادب الزمان قامت باكية بنواح الريح على الانسان في تلك المقبرة القديمة .

ومتى راق الليل وجال متبختراً على صفحة السماء القمر يسكب خيطانه الفضية ، هبّ لوتي الى القرن الذهبي فقام على ضفافه العاشبة يسبح بنظره فوق صفحة مسنونة مرمرية من بحر مرمرة ، فاشبه ابطال الهوى والهيام في فوائت العصور . اولئك المعـاميد الذين هدمتهم الهموم فلجأوا الى الطبيعة يبثونها اشجانهم ويشكون اليها اهواءهم . ولقد كفر لوتي بحب آزيادة عن ظلامته النساء وكم لهن اساء . فأخلف وعداً ونقض عهداً ولعب بروح وطعن في قلب .

واتصل لهيب لوتي بآزياده فباتت اليه والهة ونحو نسيمه متطلعة وجمعتها اويقات سعادة منهوبة من شقاء الزمن فلحق بها الى مصيفها في « مناستر » وهنالك في الليالي الدافئة تسامرا حتى طلع الفجر بحلاوات النجوى وعذرية الهوى فسألت آزياده بيير : متى ولدت ، وأين عشت ، وكم هو عمرك ، وهل امك حية بل كيف اعتقادك

بالله، وهل عرفت صاحبات من النساء، وهل انت سيد في قومك .

فاذا انتهت هذه الغريرة من كلامها اخذ لوتي نوبته منها في مثله فعرف انها فتاة شركسية جاءت القسطنطينية مع بنت من لداتها . وقد باعها نخاس لشيخ تركي رباها ليزفهـا صبية الى ابنه . ثم مات ابنه وقفى هو على آثاره . وحين بدت في السادسة عشرة كزهرة مخضلة بالحياة والجمال رآها رجل في استانبول فسباه حسنها فاشتراها وجاء بها الى سلانيك .

وكان صمويل خادم لوتي ترجماناً بينهما اذ كانا في قارب يترجح على البحر بين يدي المدينة فقالت للاديب الغربي بلسان الترجمان : ليس ربي كربك ، وكانت آزيادة تعتصم بالقرآن الكريم وتحسب ان نفس الرجل ليست كنفس المرأة ثم قال صمويل :

— تقول لك انك متى فصلت من هذا البلد فقد لا تعود اليه فلا تراك ابد العمر . انها تبكي وتخشى من الفراق والموت . ثم ضحك صمويل واردف :

— انها تطلب اليك ان شئت، ان تعانقك وترمي بنفسهـا و إياك في البحر فتغوران في قعر الماء وكلٌّ قد أمسك بالآخر . وهي تريدني على ان اعود بالزورق وحدي فأقول لمن يسألني عنكما انني لم اركما في ليلي .

فقال لوتي :

— اني لأرغب في ذلك فهل لها ان تهم بالفراق منذ الساعة على ان تكفكف من دمعها الخئون الهتون .

فعانقت حسناء الترك الاديب الخالد بزنديها وبيديها الراجفتين ثم انحنيا على البحر فصاح بهما صمويل الخائف .

يربكما لا تفعلا وهمّ فردّهما بيد من حديد .

قال لوتي لصمويل :

— ما اسوء قبلة نتعاطاها في جوف الماء ونحن نموت كاشرين .

لكن صمويل لم يترجم ذلك لآزياده .

وانتقلت آزياده الى استانبول وظل لوتي ظلاً منها ملازماً لها .

وكان يرى نفسه أعز من البادیشاه في الحب والحياة والشباب .

وحين دعي للأوبة الى بلاده فجع الخبر غانيته فبكت ساعات واذ لم يجدها البكاء، صارت تدعو له وترجو العود القريب وتقول وهي تتنهد كصاحية من أحلام :

— الله سلامات ويرسن لوتي فليسلمك الله يا لوتي .

وقد غاب لوتي ملاوة من الزمن تاركاً تحت رمـاد قلبين ناراً تتأجج بالهوى ثم عاد يدعوه هذا اللهيب فهذه استانبول تبدو له من البحر وقد أقبل بالفلك عليهـا ولما داس البر هب نحو مسجد محمد الفاتح حيث تسكن آزياده .

بيير لوتي

وحين صفق بابها خرجت اليه خادمتها الزنجية خديجة فريعت اذ رأته وشدهت اذ وجدته ووضعت يدها على فمها . فسألها :

— اين آزياده ؟ فأجـابته كالمأخوذة المصعوقة :

— أولموش ، أولموش . ماتت، ماتت آزياده .

فدارت الارض بلوتي وسمر مكانه كصنم وظل فاغر الفم ، شاخص العين لا يحير كلاماً .

وهجمت خديجة نحو لوتي تصيح بكلمة أولموش .

ثم تبعته وهو ماش كالمجذوب وهي تقول أولموش باضطراب وشدة وكانت تعنف بهذه الكلمة كلما رددتها فكأنما نقمت عليه ان قتل بحبه سيدتها .

ومضى هو في طريقه كسكران بخمرة من الموت . سار هائماً وخديجة خلفه حتى وقف بنبع له حوض من رخـام على مقربة من بيت آزياده كان يقعد على جانبه معهـا فجلس على طرفه لاهثاً ، لهيفاً ، مكباً . وقد ألصق جبهته على الرخام يطفيء ببرودته لهيب رأسه . فتقربت منه خديجة ومدت يديهـا السوداوين ، بحنان واشفاق ماسحة على شعره ثم اخذت تنضح من البركة مـاء على جبينه . وهي تقول : اولموش .

زكي المحاسني — دمشق

المنظمات المهنية عند العرب

كثيراً ما نسمع عن التطورات الديمقراطية في الغرب في الميادين السياسية ، فنلهو بها عن اخواتها في ميادين الاجتماع مما لا يقل اهمية عنها، ولا تأثيراً في سير الانسانية نحو اهدافها العليا ومثلها السامية .

ولعل ابرز التطورات الديمقراطية الاجتماعية ينحصر في جهود طبقات العمال لتحسين امورهم ورفع مستواهم ليكونوا احد العوامل الطيبة المسيرة للبشر خطوات الى الامام في معارج الرقي .

وانه وايم الحق لدور رئيسي هـذا الدور الذي لعبه العمال في التاريخ ولا يزالون يقومون به حتى الآن ، ويعزو معظم المؤرخين اساس فكرة تكتلهم ولم شعثهم في سبيل تحسين منتوجاتهم واحوالهم وبالتالي تحسين ما حولهم الى تلك الجمعيـات في القرون الوسطى في اوروبا حين كان لكل صنف من العمال منظمة هـامة ينتمون اليها ، تعلمهم وترشدهم الى اصول صناعتهم وتسيرهم على الطرق المثلى في تلك الايام لكي يأمنوا شر حوادث الازمـات ويرفهوا بقدر المستطاع عنهم وعن ذويهم .

وتطورت تلك المنظمات بتطور الازمات وباختلاف الاحوال الاجتماعية ، وتقدمت اساليبها وفقاً للضرورات وحل المشاكل بينهم وبين ارباب الصناعات فنشأت النقابات الحديثة مما لا يسعنـا في هذا المقال التوسع فيه . اذ ان غايتنا من كتابة هذه الاسطر احقاق حق وابطال خطأ وقع فيه الكثيرون من المؤرخين والكتاب عندما نسبوا هذا التطور الديمقراطي الهائل الى منظمات العمال في القرون الوسطى في اوروبا ووقفوا عند هذا الحد ، مغمطين بذلك حقوق العرب الذين لعبوا دوراً عظيماً لا يقل اهمية عن الدور الذي لعبته منظمات القرون الوسطى في هذا التطور الديمقراطي الشامل ، ولقد كشف النقاب عن هذا الفضل للعرب احد كبار ثقاة البريطانيين في رسالة طويلة نقتطف منها ما يلي :

كان معظم رجال الصناعات والعمال في مدن العـالم الاسلامي حتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة منضمين تحت ألوية منظمات مختلفة معروفة بالاصناف .

وللاصناف هذه تاريخ قديم يمت ولا شك بصلة الى مؤسسات نشأت في بعض البلدان قبل الاسلام . انما عرف هذا الاسم واطلق لاول مرة على المنظمات في الاسلام في منتصف القرن الثالث للهجرة حين كانت بغداد عاصمة الخلافة العباسية ابّان عزها .

ويظهر ان تنظيم هذه الاصنـاف متصل بحركة القرامطة ومستوحى منها . وهي حركة معروفة كانت غايتهـا الانتقاص من سلطة العباسيين واشعال نار الثورة ضدهم . فقـاموا يبحثون عن انصار لهم ومشايعين يتبعونهم فلم يجدوا بادئ ذي بدء مرتعاً خصباً الا بين المتذمرين والمغلوبين على امرهم من الطبقات كالزنج الذين أتي بهم الى العراق من افريقيـا الشرقية ليحرثوا الارض ويستغلوها لصالح اسيادهم وبين ذوي المهن والحرف والصناعات الذين كانوا يكونون طبقة ذات شأن قوي في ثروة الامة ولكنها طبقة محرومة من الاشتراك في ادارة الاعمال الدولية .

واتسع نطاق الحركة ونظمت المؤسسات السرية لاول الامر تضم الناس جماعات وقد تشربوا روح الشعوبية واتخذوا شعارهم ديمقراطية الاسلام القائل بالتساوي بين المؤمنين دون ما تفريق بين العناصر والملل ولما كان اكثر المنتمين الى هذه المنظمات من ذوي المهن والحرف اطلق على مؤسساتهم اسم الاصناف او الحرف ونظم الاعضاء جماعات جماعات لهم سننهم ولهم دساتيرهم .

ولم يكن العامل السياسي الدافع الاهم لتنظيم هذه الاصناف بل كانت غاية الصنف الهامة ايضاً الترفيه عن الاعضاء المنتمين اليه وتنظيم امورهم وفض الخلافات بينهم دون أن يلجأوا الى قاضي المدينة الذي يحتكم اليه الناس عـادة بل الى مجلس الصنف او رئيسه .

وما دام هـذا المجلس او الرئيس لا يتعدى بسلطته الحدود المرسومة له من قبل السلطات من امور تتعلق بالصنف ومجرى اعماله فلم يكن القاضي او من قـام مقامه ليمانع في امر انتحاله البت في مشاكل تعود اصلاً الى القضاء ، وهذا يدلنا على اهمية المركز الاجتماعي الذي حازته تلك الاصناف .

ولما اتسعت سلطات الاصناف وقويت شوكة المنتمين اليهـا وشعر الاعضاء بالقوة المتأتية عن الاتحاد اخذت الحكومات المتتالية ترمق هذا الاتساع بعين اليقظة والحذر خوفاً من ان يؤول الامر

الى مـا لا تحمد عقباه ، وعلى توالي السنين اكتسبت السلطات الحكومية حقوق الاشراف على الحرف والاصناف فكان لهـا محتسب، وهو موظف منتدب ليراقب اعمال المجالس الحرفية وامورها الداخلية فلا تتعدى السلطات التي يخولها اياها القانون .

وكان على المحتسب ايضاً الاشراف على ميادين اعم واوسع وغايته تطبيق الحكمة القائلة «الامر بالمعروف والنهي عن المنكر» فكان عليه مراقبة ذوي الاخلاق السيئة (كشرطة الاخلاق في ايامنا) وامور التنظيف في الشوارع، والامر بترميم البيوت المتداعية وملاحظة الموازين والمكاييل ، ومنع ارباب المهن من معاملة الذين يعملون تحت سلطتهم معاملة قاسية فظة الى آخر مـا هنالك من الشؤون .

غير ان الاصناف لم تتبع كلهـا طريقاً واحداً في كل تفاصيل سيرها بل كانت ثمة اختلافات عديدة تتطور حسب اختلاف البلدان والمدن والمحيط . الا ان الجوهر في معظم الامور كان عاماً ففي كل المدن كان لكل من الاصناف شارع او سوق يختص به تقوم فيه كل الدكاكين التي تبيع مصنوعاته كسوق الحدادين او النجارين او الصاغة او . . . او . . .

وكان لكل صنف عدد محدود من الاساتذة والمنتسبين على اختلاف طبقاتهم كالمبتدئين والمحترفين وغيرهم. وكان للاساتذة في الصنف مجلس خاص يتداولون فيه أمور المهنة التي ينتمون اليها ولكل استاذ طالب او طالبـان او اكثر يتلقنون على يديه اسرار المهنة بعد اجراء مراسيم عديدة .

ويرأس الصنف شيخ يعـاونه موظفون اداريون منتخبون من مجلس الاساتذة . وكان من اهم واجباتهم جميعاً عقد الجلسات الرسمية التي يقبل بهـا المبتدى. الطالب الدخول في حرفتهم او ترقية طالب من درجة الى درجة أعلى واقامة الحفلات العـامة في المناسبات المبهجة كانتصار الجيش الوطني او ولادة ابن للخليفة او السلطان وهلم جرا .

وكانت الروح الدينية تسود جميع اوجه نشاط الصنف فاصبح والحق يقال مؤسسة دينية زمنية، والسبب في ذلك عائد الى امرين اولهما ان اساس مهنة الاصناف قامت على اكتـاف حركة دينية والثاني ان الصوفية فيما بعد تسربت اليها قلباً وقالباً لدى انشاءها في العالم العربي لا سيما في القرن الخامس والسادس الهجري . وفي هذه الاثناء ايضاً قامت مؤسسات اخرى عرفت بالفتوة غايتها تقوية روح الشهامة والانسانية بين المنتمين اليها . فكان من تمازج جميع هذه المؤسسات وتأثير واحدها على الآخر ان قويت الروح الدينية بين الاصناف .

ونتيجة لذلك قويت روح المحبة والاخـلاص بين الاعضاء وتجلت في تعاقدهم على احترام شيوخهم احتراماً فائقاً . وفي مراسيم قبول الاعضاء الجدد من طلاب او مبتدئين ، عليهم ان يكونوا من ذوي السيرة الحسنة والاخلاق الطيبة، وان يقسموا يمين الطاعة والاخلاص للصنف ولشيخه واساتذته، وعندهـا كان يؤذن لهم ان يتمنطقوا بنطاق خـاص ويمروا وسط مراسيم خـاصة بالصنف الى ان يتم قبولهم كمبتدئين .

هـذه لمحة وجيزة عن تاريخ الاصناف . اما امر علاقتها بالمؤسسات المهنية في اوروبا في القرون الوسطى فلا يتسع مجال المقال هنا لبحثه انما لاشك في ان هنالك صلات بين هذه وتلك لا سيما وان التاريخ يذكر ان انتشار المنظات الاوروبية المهنية كان على اعظمه بعد الحروب الصليبية أي بعد ان احتك الفرنجة بالعرب وبمؤسساتهم .

ومهما كان الامر فللعرب فضل عظيم في تنظيم الاصناف او المؤسسات المهنية التي هي اساس النقابات العصرية الحديثة من الوجهة التاريخية وبالتالي اساس اهم التطورات الديمقراطية العالمية .

م . ب

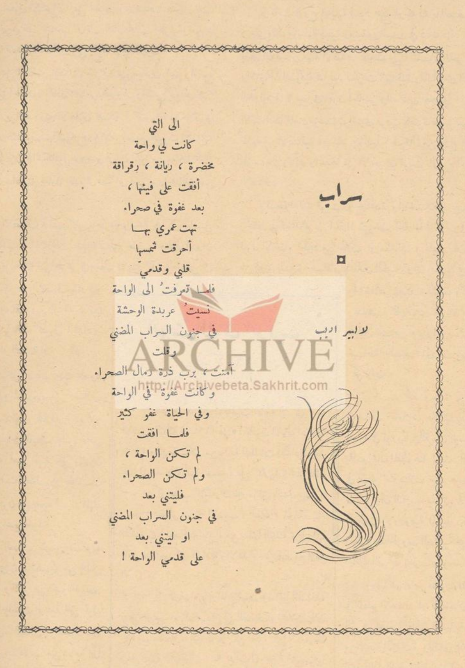
الاشتراك في الاديب
لسنة ١٩٤٤

— آخر موعد لقبول طلبات الاشتراك في سنة الاديب الثالثة (١٩٤٤) هو ١٥ كانون الاول (دسمبر) ١٩٤٣ ولن نتمكن من تلبية الطلبات المتأخرة بعد هذا الموعد لان كمية النسخ ، على كثرتها ، محدودة.

— كل طلب للاشتراك غير مرفق بالبدل يهمل .

— تضطر ادارة الاديب ، آسفة ، الى الغـاء المبادلات والهدايا ، ابتداء من سنتها الثالثة ، على انها تأمل ان تعود الى المبادلة والاهداء حال انفراج ازمة الورق .

— على الرغم من ارتفاع اسعار وسائل الطباعة، وعلى الرغم من ارتفـاع ثمن الصحف والمجلات فان الاديب ستحاول الثبات على ثمن الجزء « ٧٥ » قرشاً وعلى قيمة الاشتراك : ٩ ليرات ل. س. في سوريا ولبنان وجنيه مصري في الخارج .



سراب

◘

لالبير اديب

الى التي
كانت لي واحة
مخضرة ، ريانة ، رقراقة
أفقت على فيئها ،
بعد غفوة في صحراء
تهت عمري بهـا
أحرقت شمسها
قلبي وقدمي
فلما تعرفتُ الى الواحة
نسيتُ عربدة الوحشة
في جنون السراب المضني
وقلت
آمنت ، برب ذرة رمال الصحراء
وكانت غفوة في الواحة
وفي الحياة غفو كثير
فلما افقت
لم تكن الواحة ،
ولم تكن الصحراء
فليتني بعد
في جنون السراب المضني
او ليتني بعد
على قدمي الواحة !



نشر المحامي الاديب اليوناني الاستاذ كروميلاس سلسلة مقـالات في مجلة « ايلادا » اليونانية عن الحياة الفكرية في لبنان وعن بعض ما رآه وسمعه من الادباء اللبنانيين في زيارة قصيرة لهذه البلاد خرج منها بهذا العرض السريع لناحية هامة لم يتح له ان يحيطها احاطة وافية .

الحياة الفكرية في لبنان

حينما مررت بلبنـــان لم اشك قط انني في بلاد اليونان فالبحر والجبال والشطئآن والسهول كل ذلك كان يذكرني بالوطن . وهكذا كان اللبنانيون بوجوههم الطلقة الضاحكة واغانيهم العذبة وقصصهم الجميلة يعيدون الى مخيلتي كل ما تفيض به موسيقانا من فن ويزخر به ادبنا من جمال .

ولقد كان في رغبتي ان استزيد من كل شيء وان ادرس الحياة الفكرية في لبنان درساً وافياً او آتي على وصفهــا ، اذا امكن ، وصفاً دقيقاً . ولكن زيارتي القصيرة حالت دون ذلك . على انني سأكتفي فيما يلي بوضع بعض الخطوط الكبرى التي يتكون منها الادب في لبنان :

— حوالى سنة ١٨٠٠ كانت الحركة الفكرية عند الشعوب العربية آخذة في الانحطاط مما جعل الخطر يحدق باللغة العربية ويهددها بالانقراض . ولم يكن هناك أي امل في انقاذها لولا ان قيض الله لها الاخوين (اليازجيين) فقاما يؤلفان فيها الكتب ويطبعانهــا وينفخان فيها الحياة فاذا بها تنتعش من جديد .

وبالرغم من جميع العراقيل التي اعترضتهما فانهما لم يقفا عند حد النجاح فحسب بل استطاعا ان يخلقا مدرسة خاصة بها . وبذلك بدأ عهد جديد للنهضة ، عهــد انقذت فيه لغة القرآن الكريم . واخذت هذه الحركة الفكرية النامية تنفخ في الادب العربي روحاً جديداً . فكان لبنان اول بلد استطاع ان يساهم في خلق هذه النهضة الجديدة .

ومع انه لم يمض على هذه الحركة الناشئة سوى سنوات قليلة فقد ابدى اللبنانيون رغم ضيق بلادهم وما كابدته من حروب واحداث وفقر نشاطاً فكرياً عجيباً . وبلغ الشعراء والمفكرون والادباء والصحفيون منهم مدى بعيداً من الكمال .

فكأنما الطبيعة والجو ، جو البحر والجبل قد اكسب اللبنانيين صفات كثيرة . فهم يحبون بلادهم لانهم يعرفون قيمتها . هذه القيمة التي عرفها لها العالم المتمدن عندما فكر ، على ما يظهر ، منذ عدة سنوات بانه مدين بالكثير للفينيقيين .

ليس للبنانيين اطماع ولا اغراض وانمــا هم قوم يريدون ان يعيشوا في هدوء واطمئنان لينصرفوا الى التفكير والفلسفة . وهم ليسوا رجال حرب ولا رجال سلم وكل ما يطلبونه في هذه الحياة زاوية حرة من الارض لا ليحيو فيهــا حياة عمل بل ليحيوا حياة تفكير ، تفكير في الماضي والحاضر والمستقبل بل في ابعد من هذا كله في اشياء علوية تترقبها النفوس دون ان تراها . وهم لايعرفون ان يتعاطوا شيئين في آن واحد . فاذا كتبوا فصلاً في الحب فلا يدور كلامهم فيه الا عن الحب في ذاته لا يكون تحليلاً نفسيا ولا اجتماعياً وانما يكون « حباً على ورق » .

•

واحد من أبعد الذين يمثلون الشعر اللبنـــاني الحديث شهرة واقواهم رمزاً هو امين نخلة وهو الرجل الذي يفكر شعراً ويحيا انشودة . يقول : « انا انظر الى الدنيا من خلال بيتي اللبنـــاني ، ولا انظر الى وطني من خلال البيت الذي يضم العالم » .

وامين نخلة معجب ببودلير رغم تفاوته اعجاباً لا يشعر معه في قرارة نفسه، بأية غضاضة — اقرأ قصيدته التي اهداها الى بودلير(*) ولكي تدرك معنى هذه القصيدة كما ينبغي ، اسمعها من فم الشاعر . فالترجمة تفقد كثيراً من الكلام . واللغات على كثرتها عاجزة عن ان تؤدي معنى العبارات العربية بكاملها .

(*) لعل الكاتب يقصد الابيات التي وضعها الاستاذ امين نخله على قبر بودلير . « الاديب »



امين نخله

شخصية امين نخلة تتجلى لنا في الجملة التالية التي تطبع جميع تـآليفه : « افكار خـالصة في اسلوب مبين قوي » .

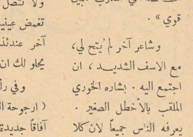
وشاعر آخر لم يُتح لي، مع الاسف الشديـد ، ان اجتمع اليه . بشاره الخوري الملقب بالأخطل الصغير . يعرفه الناس جميعاً لان كلا منهم يجد في قصائده صورة لنفسه . فهو لا يتكلف قافية ولا وزناً وهو ليس بشاعر لكنه مترجم عن الفكرة الانسانية . والخوري سيخلد دائماً لانه يعرف ان يمس قلب كل انسان وهو ينطوي على نفسه . فهو المنشد الرحالة القلق . وهو في شعره يرضي الضعفاء كما يرضي الاقوياء ، المتفـائلين والمتشـائمين . فاناشيده تسير من جبل الى جبل ومن مدينة الى مدينة ومن موجة الى موجة . لان النـاس جميعاً من ساكني الجبال، الى ساكني المدن الى صائـدي السمك تتحرك شفاههم بها دائماً .



بشاره الخوري

لم استطع الحصول على قصائد مترجمة له غير انني ما وقفت مرة ، حين كنت استمع الى من ينشدها لي ، امام معنى يفوتني منها ، الا وكشفه لي بحركة مرافقة من عينيه تنسجم دائماً مع روح القصيدة وقوافيهـا . فعرفت عندئذ من هو بشاره الخوري ، ولماذا ينعتونه بالخالد .

يقول صلاح لبكي : « ان الانطلاق الفطري هو الذي يضفي على القصيدة جمالها » . فكيف يمكننـا اذن ان نقيد القصيدة بقواعد ؟

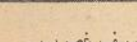


صلاح لبكي

فانت لا تصبح شاعراً الا حين تنسى النظريات . ولا تتصل بنفسك الا حين تغمض عينيك وتحيا في عالم آخر عندئذ تنتقل الى حيث يحلو لك ان تعيش .

وفي رأينـا ان كتابه (ارجوحة القمر) قـد فتح آفاقاً جديدة في الشعر . ولقد سُئل مرة عن مـدى تأثير الاجانب في اللبنانيين فاجاب : يقولون بان فرلين وسامان كانا ابوي الادب اللبناني الحديث ، وهذا شرف لنا ، لكن من الواجب ان نضيف الى هـذا ان الشباب اللبناني ، برغم كل هذه التأثيرات ، يحافظون دائماً على طابعهم الشخصي .





يوسف غصوب

ولم استطع ان اتعرف الى يوسف غصوب ، لكن ما من احد الا ولديه ما يقوله عنه . فهو شاعر رقيق يتغنى دائماً بالسلام . ولقد كتب «القفص المهجور» و« العوسجة الملتهبة » — اقرأ احـدى قصائده — تمتـاز قصائده الاخيـرة بنزعة قوية الى الاستطلاع . فهو يحاول فيها ان يتحلل من تلك القيود التي تضغط على قلبه ، القيود التي يفرضها عليه المجتمع ليبحث عن النور في الطبيعة وفي براءة الطفولة .

. . . ولا ريب في ان المفكرين هم الذين يحتلون بين الادباء اللبنانيين المقام الرفيع . فهم لا يميلون الى الفلسفة المجردة ولا الى الادب الخـالص . وكثيرون منهم لا يدونون خواطرهم بل يكتفون بالتنزه فوق الجبال وعبر البحار ثم هم يعيشون في المدن فيكون دأبهم دائماً الدرس والتفكير . يرصدون كل حركة من حركاتهم ليحللوها في نفوسهم ويشتقوا منها الحق والجمال . وهكذا



رئيف خوري

فانهم يعيشون في عالم آخر يخلقونه لانفسهم .

أحد هؤلاء هو رئيف خوري . رجل عاطفي يرتفع دائماً بخياله فوق السحب ولا يعود الى الواقع الا اذا وجد من يريد ان يفهمه . ولعل تقاليد البلاد او لغتها او مناخها هي التي تجعل من كل صحافي ناشيء رجل خيال واحلام .

فالادباء جميعاً يحاولون ان يخلقوا ، الى جانب هذه الحياة الرتيبة شيئاً امتع ، شيئاً يروّحون به عن عقولهم وقلوبهم .

وهذا الياس ابو شبكة نحيف ذو تقاطيع خاصة وشعر حالك يتدلى الى منتصف الجبين وعينين واسعتين تنطقان تحيم فوقهما الاحلام . يتحدث اليّ عن الشعر :

« الشعر لا تقيده نظريات ولا قواعد . فالنظريات والقواعد التي خلقها الانسان لا تكسب الشعر شيئاً بل على العكس تسلبه روحه وجماله . ان الحياة لا حد لها والشعر مرآة هذه الحياة » .

ولما كانت الفكرة كومضة البرق وجب ألاّ ينهض في وجهها أي حاجز . فهل يتسنى وضعها ضمن اطار من القوانين ؟

ان الشعر قرين الحياة والطبيعة فكيف يمكننا ان نحول دون شيء أبى الله الا ان يكون ؟



الياس ابو شبكة

وابو شبكة شاعر يعبر عن كل ما ينطوي في اعماق نفسه ، فتراه دائماً بعينيه الحالمتين يحلق الى حيث يحلو له ان يعيش ... يبحث في نفسه وخارجها ويدرس كل شيء ويراقب انفعاله وانفعال غيره بالمؤثرات الخارجية فيدونها .

اشتهر في شعره بتخليد المدن المفقودة والمدنيات المنقرضة والجمال الذاوي والعظمة الداثرة . — اقرأ احدى قصائد أبي شبكة — فهو يقول في كتابه الذي عنوانه « افاعي الفردوس » حين يتكلم عن سدوم التي ارسل الله عليها ناراً من السماء فهدمتها :

فما هذه النار سوى شرارة ارسلتها تلك الشعلة الكبرى (*) ؟

وكان ساعتئذ الى جانبه عمر فاخوري لا ينقطع عن تتبع الحديث وكان مقبلاً بكليته وعيناه تلمعان خلال نظارتيه . فيبدي من غير ان يتكلم ، انه على اتفاق مع ابي شبكه فيما يقول .

والفاخوري صحافي وكاتب في آن واحد . فالانسان والطبيعة تدب بهما الحياة تحت قلمه . وهو واقعي الى آخر حد . متأثر بطبيعة لغته الرومانتيكية ، يسكب الجمال في الالم والنضال .

اما الموضوعات التي يتناولها فمتفرقة . قصص قديمة او حديثة حوادث مشهورة في التاريخ . جهود العامل والزارع . وصف الجد والكسل . بل كل شيء يدور بخلده ينقلب حياً بين يديه على الورق . سألته عما اذا كان قد كتب في موضوع الانسان وهو يناضل الارض . فنظر اليّ متأملاً دون ان يجيب . لكن ابو شبكه الذي كان يستمع صامتاً ، جذب اليه الحديث قائلاً : كيف تقول ان الانسان يناضل الارض ؟

عمر فاخوري

الارض هي ام الانسان . وما من ولد يناضل امه .

فذكرت له ان الولد عليه ان يناضل ليستطيع ان يكون جديراً باكتشاف سر الحياة . وان على الانسان ان يكد ليجني ثمار الارض .

فقال — اجل ! غير ان هذا ليس بنضال .. بل هو جمال الحياة وغايتها . نحن نحاول ان نعرف سر الارض لنستفيد مما تجود به علينا .

ان الارض ليست ابداً عدو الانسان ، فكل جهودنا واتعابنا انما هي لمصلحتنا . الارض هي ام . فهي تعطيك الشيء . وان كنت عاقاً . فاذا كنت باراً ، خصتك فوق هذا بكل ثروتها .

واود ان اضيف الى هؤلاء ، وانا انهي هذا المقال ، اثنين هما

(*) يشير الكاتب الى هذا البيت :

لا تعبأي بعقاب ربك انه جرثومة من نارك المتدفعة

الصحافي الاديب البير اديب وبلانش داود عمون .

اما البير اديب فهو مفكر شاب لم يستغل بعد جميع مواهبه . يبذل مجهوداً عنيفاً ليس في اخراج تآليفه فحسب بل في صياغة افكاره . فلا يقوم بعمل الا ويتعهده للنهاية . يكتب المقالات ويصدر مجلة « الاديب » من ارقى المجلات العربية . وهو يكتب عادة ليرفع من شأن الادب في سوريا ولبنان


البير اديب

هذا هو البير اديب العاطفي المتفائل بعينيه الضاحكتين يحدثني عن نظرياته ويعرفني الى تآليف الادباء الآخرين . اليه يعود الفضل في تعرفي بمختلف الشخصيات الادبية في لبنان .

قال لي مرة : واضح جيداً ان هذا الارتداد في التخبط الذي نشاهده ليس جديداً في شيء . وانما هو تخبط لازم الانسانية بصورة دائمة . .

لم يخل العالم يوماً من المصلحين فما كان الناس ليتقبلون آراءهم الجديدة الا حين كانت تنسجم مع غرائزهم وميولهم .

من هنا مصدر الفوضى في الفكر والعمل ، في اختلاف الآراء وتصادمها في التباس الشر والخير . وكذلك في الاختلاف الاكبر بين الناس حول تقدير الاعمال ونتائجها .

وقال : « ان المصلحة الوطنية لبلاد ما لا يمكن ان تتناقض مع المصلحة العالمية . . لان هذه انما تقوم على الحق ، والحق واحد في جميع البلدان . ومحال ان يتناقض الحق مع الحق في البلدان الاخرى .

فما يتفهم شعب من الشعوب معنى الحق الا ويجد من تلقاء نفسه طريق الصواب . »

والبير اديب يرغب في ان تكون هناك حرية مطلقة ، حرية تقوم على اساس من الحق والخير .

ولقد كتب في مكان ما : « من ذا الذي يستطيع ان يكون له افكار صريحة وحكم عادل ، يحلل اعمال الآخرين دون تغيير ويترجم آراءهم دون تحوير . وبكلمة واحدة أي امرىء يستطيع ان يرتفع الى مستوى العدل الالهي ويصل الى كل هذا ان لم يكن حراً . »

ومن الصعب ان نتحدث عن عمل البير اديب فهو موزع بين مقالات يكتبها للصحف والمجلات وبين اشراف على الاذاعات العربية في راديو الشرق .

ولكن بضعة افكار تسقط اليك من هنا وهناك كافية لان تعرفك الى شخصية هذا الرجل الكريم .

ولقد اتفق لي ان ارى فوق احد المكاتب (تاريخ لبنان) وهو كتاب انيق كتبته ووضعت رسومه بلانش داود عمون فوجدته يفيض بحب هذا الوطن الصغير المغبون وكانت رسومه توضح وتكمل معناه وهي مؤلفة من خطوط كبيرة والوان خفيفة تبهج العين وتريح النظر ، تخفف من وزن الجملة ، وتقلل من حدة الالم . الالم الذي يكاد ان يخترق الكتاب من اوله الى آخره . ألم ذلك الشخص المرزوء المتواضع الذي أعطى دون ان يأخذ .

ان كل فصل من هذا الكتاب ينفرد بوصف عصر من التاريخ اللبناني فتحتويه صفحتان .

ليس به اشارة الى الزمن ولا الى الحوادث التاريخية . بل هو كلمات منتقاة ، افكار ثابتة ، شكوى دائمة من الغرب ، لا شيء بعد ذلك . هذا هو كتاب بلانش عمون .

ولقد نعمت بالتعرف اليها فتحدثنا عن كتابها وعن اللوحات التي بعثت بها الى معرض نيويورك حين مثلت فيه وطنها . فوجدت فيها فتاة تحب بلادها لانها تعلمت كيف تتعرف اليها وهي لا تستخدم الادب ولا الفلسفة . بل تتوق الى محاولات ترمي الى تجميل بلادها وعرضها بصورة ابهى واكمل .

وتحاول ان تتخلص من تأثير ثقافتها الفرنسية وسياحاتها في الخارج لتعيش لبنانية في تقليدها وفي عملها .

* * *

وبعد فلقد كانت زيارتي للبنان اقصر مما كنت ارغب ومما كان ينبغي ان تكون ، نعمت فيها برؤية الجبل والبحر والثلج والطبيعة واستمعت لاناشيد الشعب وصائدي السمك . ولكنني قبل كل شيء ، كنت اتوق ، في هذه البلاد التي تذكرني بوطني الجميل لان استمع الى صوتها الداخلي ، صوتها المنبعث من الاعماق .



الفكر العربي بين ماضيه وحاضره

للاستاذ سامي الكيالي – ٩٦ صفحة – مطبعة المعارف القاهرة .

جميل ان يجيء صدور هذا الكتاب والجهود العربية في كل مكان منصرفة الى تحقيق اكبر احلامها ، والى تدشين القاعدة الاولى والخطيرة في بناية العرب القومية .

هذه الجهود التي تصلها الديمقراطيات الترجمة اليوم بجهد اكيد ، وتساندها بموءازرة ، وتمدها بتعزيز ، وتغريها في صدق وتشجيع ، كجانب من التنظيم العالمي المقبل الذي سوف تسوده الحرية المنورة ، وتحتضن فيه كل الالوان التي هي من املاء الانسان الرجعي النهم ، وكل الاشكال التي رسمتها انياب افعى الانانيات وتدفق فيها لعابها .

وشاء الاستاذ الموءلف ان يرسل جهده بين تلك الجهود ، فيعرض ناحية الفكر لدى هذه المجموعة الانسانية من البشر ، ويقام هذا الفكر والقيم الكبرى التي حفظها التاريخ له وسجلها في تقدير ، وأثر الدور الخطير الذي لعبه وأداه للخير الانساني وزود به حركة الحضارة العظمى التي لن تفتأ سائرة وخالدة .

وهذا شيء نرى ضرورته كي يشعر العربي بأنه ليس حذفاً فله مقامه ، وليس عاجزا فعليه واجبه في الشروع الانساني مع وجهة الحياة الصاعدة .

وانا الذي ابالغ في الاعتداد بالفكر حتى عددت الحياة نفسها ظاهرة فكرية في كتاب دستور العرب القومي وسلسلة اني أتهم ، أغتبط بهذا اللون من البحث الذي يبث خمائر الثقة بالنفس في منهج التفكير وقيمة الذات في مذهب الادراك ، فننشط الى المساهمة والمشاركة اللتين يحول دونهما الاتكال العقلي . وهـذا لا يعني الدعوة الى الاعتداد الاحمق بل الاعتداد الهادىء بوعي ، الذي هو الاداة الاولى لتجربة الاستقلال في الفكر والاداة الاخيرة للابتداع القيم في الانتاج .

وادع هذا الان جانباً لاتناول الكتاب بالعرض والتعريف . . . هو وان كان يحمل في العنوان وحدة موضوع ، فليس له تلك الوحدة في مضامين الكتاب ، وعنوانه ليس الا امتدادا لعلوان (*) الفصل الاول من فصوله . اما هو على حقيقته فبحث عن الفكر العربي ، الى آخر عن محاسن الفكر العربي ، الى مثله ومثله عن كيفية احيـاء الثقافة القديمة وموقف الشباب من النزعات التجديدية .

وليس على القارىء ان ينتظر فيه تحقيقاً تاريخيـاً على الفكر العربي ولنواحيه ، فهـذا ما لم يقصد اليه المؤلف ، وانما هو اهابة قومية فقط عرض فيه التاريخ بلغته كأدب وليس بلغته كعلم ، وهذا سر طرافته وهذا سر قيمته ولذته .

والكتاب بعد ذلك يبدأ بمقدمة للدكتور طه حسين جاءت شخصية خالصة عن الاستاذ المؤلف ، وان لم تخل في نهايتهـا من ملاحظة وصفية قيمه ومن الخير ان نلم بها . فذلك التجديد الذي كان يلام فيه قليلا اصبح لا يرضي طموح الشباب ، وان التعاون الثقافي والتضامن في الحياة العقلية اصبح هو الاساس الصالح المتين لكل ما نأمله من تقارب ص(د) .

وفي فصل الفكر العربي بين ماضيه وحاضره يصدره المؤلف بكلمة للباحث الانكليزي ويلز ، تدور على ان الفكر العربي جاء بشكل جديد وبقوة جديدة ، وان اليوناني كان ابا للعلم فجاء العربي وحل محله في هذه الابوة (ص١) . وفي اثرها يذهب المؤلف فيحدثنا عن بداءة الفكر العربي وكيف اشتد وتكامل بوثبة سريعة مدهشة لم يكن منها بد ، فليس في وسع هذا المارد العجيب ان يعيش حياة محدودة الآفاق وهو كتلة من عصب ووقدة من بركان . وقد تسنى له معها ان يطل ويطلع على أنفس ما جاد به الفكر الى عهده ان يونانياً او هندياً او فارسياً ، وسرعان ما هضمه في غير تخمة ، وسرعان ما ذهب يفكر مستقلا جامعاً عليه ميزة الخلق والمغامرة ، فكان قوي الاشعاع قوي الاثر . وهكذا سجل العربي لنفسه ثورتين ، بدت احداهما في الفتح وبدت ثانيتهما في الفكر . وهو في دور اخياره لم يلق الوديعة المقدسة في غير مبالاة اين تقع ، بل كما تسلمها نقية من اليونان أسلمها بدوره نقية الى ايد اخرى الى أيد اوربية وجدت فيهـا حيويتها من جديد . ثم استسلم الى نوم طويل بدأ يزايله شيئاً قبيل منتصف القرن التاسع عشر ، معلناً انه يعود الى الحياة وفي نهم الحيوية المتفتحة . واخيرا يتساءل المؤلف هل يهيأ للفكر العربي اليوم ان يلعب نفس الدور الذي لعبه بالامس ، بيد انه يقول وقد استسلم الى أمل ان جواب ذلك في ضمير الشباب المهيأ للوثب والخلق والابداع (ص٢–١١) .

وفي فصل ابن خلدون والعرب يعرض المؤلف لكلمة العرب عنده ويستفهم مراده على انه اخيرا يدينه بقسوة (ص ١٣–٢٦) .

وفي فصل ثقافتنا العربية القديمة وكيف نعمل على احيائها ، بعد ان يلخص المؤلف الآراء المتباينة في انه هل كان هنالك من ثقافة عربية قديمة جديرة بهذا الاسم ، أم هي ثقافة شعوبية اشترك في اقامة بنائهـا الفارسي قبل العربي والرومي قبل ابن الصحراء . يمضي في مناقشة هادئة لا بأس بها وينتهي الى انها قد كانت ، وهذه النتيجة تنتقل به الى معالجة سوءال جديد وهو كيف نعمل على احيائها . والمؤلف يورد طائفة من الآراء بهذا الصدد ولعل من خيرها ما اجاب به الاستاذ امين الريحاني ، من ان عملية الاحياء هذه تتطلب عقد موءتمر ثقافي عربي عام في مصر او في

(*) اكثر اللغويين على ان العلوان يرادف العنوان واللام معاقبة للنون ولكني وقفت في كتاب المقدم او ادب الكاتب لابن درستويه على تفريق حسن . وهو ان العنوان يراد به مـا يوضع علامة على البحث كاسم الكتاب مثلا ، بينما العلوان يراد به كلمة التعريف بالموضوع ويصدر بها البحث ، وعليه فاسماء الكتب عناوين واسماء الفصول علاوين .

لبنان ، تبحث فيه نواحي هذه الثقافة ويقرر فيه ما ينبغي ان تقوم به كل حكومة لاحياء الصالح منها (ص ٢٧-٤٠)

وفي فصل البلديات عند العرب يحدثنا عن ان البلدية لم تعرف بلفظها المذكور عندهم ، بل عرفت في جملة ما تعنيه كلمة (الحسبة) ، ثم يفيض بان المحتسب كانت تتجمع فيه سلطات ثلاث، سلطة رئيس البلدية وسلطة مدير الشرطة وسلطة مدير الصحة ، وظل هذا النظام حتى اواخر القرن التاسع عشر وحينئذ أفسح المجال لنظام البلديات المنقول عن اوضاع الغرب . وشاء المؤلف ان يوقف القاريء على شيء من اوضاع الحسبة وصلاحياتها، فيعتمد على كتاب معالم القربة في احكام الحسبة لابن الاخوة القرشي المنشور بعناية المستشرق الانكليزي المستر روبن ليوي استاذ الادب الفارسي في جامعة كمبردج . فيطرف بطائفة من نظم الشوارع وماذا يمنع فيها من مثل طرح الكناسة وتبديد قشور البطيخ بحيث يخشى من التزلق والسقوط ، وبطائفة اخرى من رسوم ارباب الدكاكين مثل على كل صاحب دكان ان يعد زيرا مملوءا بالماء عند دكانه مخافة حدوث الحريق في مكان فلا يطفأ بسرعة ، وكان يلزم صاحب كل دكان بتعليق قنديل على دكانه طول الليل . وهكذا الى آخر ما اشتمل عليه الكتاب ثم يخلص المؤلف الى نتيجة هامة، وهي ان العرب عنوا بالعمران ونظافة المدن ولا عجب فهم قد ورثوا مدنية الرومان واليونان واخذوا من الهند والفرس كل ما لديهم من ذوق وفن وصناعة وطراز حياة وصبغوه باللون العربي (ص ٤١ – ٥٥)

وفي فصل موقف الشباب من النزعات التجديدية ، يبين اولا ان عناصر التجديد تقوم في كل نهضة حية على المبادىء الآتية ، وهي ثورة العلم على الجهل وثورة الحرية على الظلام وثورة الحركة على الجمود وثورة النظام على الفوضى وثورة الايمان على الوثنية وثورة الهدى على الضلال ، وثانيا ان دعوة الشباب اليوم قائمة على هضم حضارة الغرب لفهم حضارة الشرق (ص ٧٥ – ٨٥) .

وفي فصل ايمان ، يصرح في لهجة قاطعة بأن شيئًا يعوزنا للوصول الى اهدافنا السامية وذلك هو الايمان في الوانه التي هي الايمان بقدسية الفكر والايمان بقدسية الحب والايمان بقدسية الحرية ، فهذا الذي رفع القدامى لينشروا رسالتهم السامية على الدنيا هو هو الذي يعوزنا في نهضتنا وفي عصرنا (ص ٩١ – ٩٦)

وانا بعد ذلك لا أدري بأي جوانب هذا الكتاب اكثر متعة واحساسًا ، وبأي ألوانه اكثر لذة واستهواء ، أبصدق العاطفة المشبوبة ام بنبل الباعث وسلامة التفكير ، وأحرى ان يكون جميعها اشترك وتوافق في مثار هذا الاعجاب .

عبدالله العلايلي

عالم الذباب

لامير اللواء الدكتور فائق شاكر – ٨٨ صفحة – بغداد

كتيب يبلغ عدد صفحاته مع الذيول ثمانية وثمانين صفحة جمع مادته سعادة امير اللواء في الجيش العراقي الزميل الطبيب فائق شاكر خرج منه كما يخرج الكثيرون من الجامعين بما له وبما عليه رغم كثرة المراجع التي نقل عنها والتي بلغ عددها اربعة عشر مرجعًا منها سبعة عربية وسبعة افرنجية

والمتصفح لهذا الكتيب او الرسالة كما يريد جامعها ان يسميها لا يستطيع بعد ان يتم قراءتها الا ان يشعر بنبل الغاية التي يتوخاها الزميل الكريم من نشر رسالته هذه ليبين هول الاضرار الفادحة التي ينزلها الذباب في كل مرفق من مرافق الحياة احيانًا مباشرة واحيانًا بالواسطة .

ومن يتصفح ما نقله لنا المؤلف مما ذكرته كتب الادب عن الذباب يظن لاول وهلة ، ان الرسالة رسالة ادب يقصد منها ناحية الادب واذا ما فرغ مما اوردته كتب الادب عن الذباب وقرأ ما كتبته التوراة وغيرها من الكتب السماوية وكتب التاريخ عن الذباب ظن بان القصد منها تعريف الناس بتاريخ الذباب والويلات التي ارسلها الله على اجنحته ولكن سرعان ما يصطدم بما نقله لنا الامير الطبيب من سرد انواع الذباب الكثيرة والتكلم عن اجناسه العديدة ثم الاصطدام ثانية بذلك الشرح المستفيض الممل عن تكوينه وعن ألوانه وأشكاله واوصافه وتركيب هيكله وادوار حياته وألوانه حتى اتى على الدقيق من هذه الاوصاف مما يذكره علماء الحيوان والحشرات ومما يحشون به مؤلفاتهم التي نقل عنها الزميل الكريم والتي كلفت عددا منهم حياتهم في غزوهم هذا العالم – عالم الذباب – في عقر داره عندما وضعوا هذه المؤلفات عنه مما يكتب فقط الى الاطباء وتلامذة الطب هذا اذا ما اردنا ان نقصر هذه الشروح ودقيقها على ارباب الاختصاص وحدهم .

فالرسالة اذن عبارة عن محاولة اراد منها صاحبها ان يوجهها الى الطبيب والعالم والاديب والمؤرخ ورجل الشارع مما جعله يخفق في محاولته هذه اللهم الا في ما وجهه من النصائح لمكافحة الذباب مما نقله من « وصايا » ريول العلامة الفرنسي . فان كانت للطبيب فالطبيب لديه من المراجع الاصلية ما يغنيه عنها وان كانت للاديب فخزانة الاديب محشوة بامثال الكتب التي عنها اخذ وان كانت للمؤرخ فهذا ايضًا لا يعدم وسيلة ينقل عنها كما نقل الزميل وان كانت للدهماء ورجل الشارع فهؤلاء في غنى عما قاله الجاحظ والدميري والقسطلاني واضرابهم وعما قاله william Herman و Hauch و Seguy وامثالهم وتكفيه وصايا ريول التي ألمعنا اليها سابقًا .

ولقد راجعنا في الرسالة الامراض التي ينقلها الذباب والتي نقلها لنا المؤلف فرأينا فيها ما يخالف الواقع والعلم وانه لم يتحر الدقة المطلوبة في فصل الرسالة العلمي هذا فالطاعون الذي قال الطبيب فيه ان الذبابة هي واسطة اخرى عدا عن البرغوث – وأي برغوث ?? – من وسائط نقله ليس للذبابة ضلع في تفشيه من المرضى الى الاصحاء ونحن مع تأكدنا براءة الذباب رجعنا الى ما كتبه عن الطاعون Dujardin Beaumetz من مؤسسة باستور فوجدناه لا يذكر الذباب كعامل نقال لجرثومة Yersin لا في الطاعون الدملي ولا في الطاعون الرئوي . وهب ان الذباب ينقل الجرثومة بمصه دم مطعون الا ان دم المطعون لا يحتوي على جرثومة المرض الا نادرا وبقدر ضئيل جدا دلت الاختبارات والتجربات العلمية والفنية على انه مما لا يؤبه له الا عند الاحتضار واذا سلمنا جدلًا وقلنا ان الذباب يقع على مواد مطعونة كجثث الجرذان مثلًا او على بصاق مطعون برئتيه وينقل الجرثومة الى المواد الغذائية فما علينا الا ان ننقل ما قاله Dujardin Beaumetz من انه من الصعب جدا ويكاد يكون ذلك مستحيلًا نقل العدوى بواسطة الجهاز الهضمي ويقول هذا العالم

الاختصاصي ان الذبابة كالبرغشة والقملة والبقة تقدر ان تكون «وعاء» « Recipient » لدم مطعون ولكنها لا تقدر ان تنقل المرض على الاطلاق اما البرغوث فهو العامل الوحيد الذي ينقل الجرثومة وليست كل البراغيث قابلة لهذا العمل فبرغوث الفئران مثلاً ليس باستطاعته ان ينقل المرض وكذلك برغوث الهررة . امـا البرغوث الذي بامكانه ان ينقل الجرثومة من جرذ مطعون الى انسان سليم فهو الذي يعيش على الاشقين Pulex cheopis . هذه لمحة صغيرة اردنا منها ان تنفذ الى حقيقة علمية وهي ان الذباب بريء من نقل جرثومة الطاعون وان العـامل الوحيد هو البرغوث المسمى Pulex cheopis الذي ألمنا اليه سابقاً وهناك نوع آخر له ضلع ضئيل في هذا الميدان لم نذكره لندرة تدخله .

والان ليسمح لنا الزميل الكريم ان تناقشه بكل تواضع ما اراد ان يثبته من النظريات العلمية التي ظن انها وردت في حديث نحن نشك فيه شكاً كبيرا هذا اذا ما اعتقدنا بانه من الاحاديث المدسوسة التي رواها كعب الاحبار مصدر الاسرائيليات والتي عنه روى ابو هريره كل مـا هو غريب من الاحاديث والتي انفرد وحده بها . وهذا الحديث الذي لا يقره العلم هو كما ورد في رسالة عالم الذباب هذه : « اذا وقع الذباب في شراب احدكم فليغمسه فان في احد جناحيه داء وفي الاخرى شفاء » .

اما ان المنطق لا يقره فلقد كان الاولى باصحاب النبي وزوجاته عليهم السلام ان يرووا هذا الحديث قبل ان يرويه ابو هريره رضي الله عنه لان النبي (ص) اتاحت له ظروفه الجلوس على الاكل مع اصحابه وزوجـاته اكثر مما اتاحت لابي هريرة فنحن كنا نقف مترددين في نفي هـذا الحديث اذا ما كانت روته لنا احدى زوجاته رضي الله عنهن فهن قضين اكثر اوقات طعامه ومن البديهي ان يوصيهن به قبل ان يوصي غيرهن

اما ان الذوق السليم يأبى علينا ان نصدق هذا الحديث فهذا لا يحتاج الى كثير من المناقشة فالرجل الذي يقول « النظافة من الايمان » ويجعلها قسماً من الايمان لا يتم ايمان المرء الا اذا تمت نظافته بعيد عن ان يقول مثل هذا الحديث والرجل الذي يقول«ان الطيب هو واحد من ثلاثة حببت اليه في دنياه هذه» لا يعقل ان يكون غطس ذبابة في شرابه عندما وقعت عليه وفوق كل هذا فالرواية ضعيفة وضعيفة جدا وها نحن ننقل مـا ورد في هذا الصدد في الجزء السادس من مجلة المنار للطبيب الزميل محمد توفيق صدقي عندما ذكر الذباب واضراره في محاضراته الطبية الاسلامية العلمية اذ قال : « اما ما رواه البخاري عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال : « اذا وقع الذباب في اناء احدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فان في احد جناحيه شفاء وفي الآخر داء » . فهذا الحديث مشكل وان كان سنده صحيحاً فكم في الصحيحين من احاديث اتضح لعلماء الحديث غلط الرواة فيهـا كحديث « خلق الله التربة يوم السبت » مثلاً وغيره ممـا ذكره المحققون ، وكم فيها من احاديث لم يأخذ بهـا الائمة في مذاهبهم فليس ورود هذا الحديث في البخاري دليلا قاطعاً على ان النبي (ص) قاله بلفظه مع منافاته للعلم وعدم امكان تأويله على ان مضمونه يناقض حديث ابي هريرة وميمونة وهو ان النبي سئل عن الفأره تقع في السمن فقال : « اذا كان جامدا فاطرحوها وما حولهـا وكلوا الباقي ، وان كان ذائباً فأريقوه ولا تقربوه » فالذى يقول ذلك لا يبيح أكل الشيء اذا وقع فيه الذباب فان ضرر كل من الذباب والفيران عظيم ثم قال وهب ان الرسول قال ذلك حقيقة فمن المعلوم ان المسلم لا يجب عليه الاخذ بكلام الانبياء في المسائل الدنيوية المحضة التي ليست من التشريع بل الواجب عليه ان يمحصها ويعرضها على العلم والتجربة فان اتضح له صحتها اخذ بهـا والا علم انما مما قاله الانبياء عليهم السلام بحسب رأيهم وهم يجوز عليهم الخطأ في مثل ذلك » . انتهى ما اورده الدكتور محمد توفيق صدقي في مجلة المنار مما يدور حول هذا الموضوع ثم اورد لنا شيئاً من تاريخ حياة ابي هريرة مما يجعل الحديث لهذه الاسباب وللاسباب الاخرى التي ذكرناها سابقاً ضعيفاً جدا نميل لضعفه هذا ان نعتبره من الاحاديث المدسوسة التي لم يقلها النبي قال :

أسلم رضي الله عنه سنة (٧) هجرية فصحب النبي ثلاث سنين ولم يكتب شيئاً من الحديث ، وقال عن نفسه انه كان كثير النسيان فدعى له الرسول – كما قال – فذهب عنه ذلك . وكان فقيرا أكولا يطعم كل يومين من بيت النبي او من بيت احد اصحابه فكان يحب ان يتودد الى الناس ويسليهم بكثرة التحديث والاغراب في القول ليشد ميلهم اليه وربما كان مصاباً بالصرع – كما يستفاد من بعض الروايات الواردة في ترجمته – والصرع مرض مشهور عند الاطبـاء يورث ضعف العقل او الجنون .

روى بعد وفاة رسول الله (٥٣٨٦) حديثاً حتى ضج منه كبـار الصحابة رضي الله عنهم وملوا كثرة حديثه ، وقالت له عائشة رضي الله عنها : « انك لتحدث بشيء ما سمعته »

وروى ابن عساكر في تاريخه عن السائب بن يزيد قال سمعت عمر بن الخطاب يقول لابي هريرة : « لتتركن الحديث عن رسول الله او لالحقنك بأرض دوس » ومما روى عنه انه قال « لقد حدثتكم باحاديث لو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربني عمر بالدرة » يعني بالسوط وروى الطبراني في الكبير عنه انه قال : قال رسول الله : « اذا لم تحلوا حراماً ولم تحرموا حلالاً واصبتم المعنى فلا بأس » وقال ايضاً انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « من حدث عني حديثـاً هو لله عز وجل رضا فانا قلته وان لم أكن قلته » كما رواه ابن عساكر في تاريخه عنه مع ان من المروي بالتواتر عن رسول الله انه قال : « من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده في النار » رواه مئتان من الصحابة وهو ينافي مـا قاله ابو هريرة وهذا الحديث اضطر عمر لتذكيره به حينما بلغته كثرة حديثه » ومن جملة ما علق صاحب المنار يرحمه الله على هذه النبذة التاريخية بصدد الكلام على ابي هريره قوله : اولا يسهل الحكم فيما روي عنه من المشكلات التي انفرد بها الا اذا جمعت واحصيت اسانيدها وكان يروي عن كعب الاحبار مصدر الغرائب الاسرائيلية الكثيرة الخ . . . اما العالم الذي استند زميلنا المؤلف الى نظرية من نظرياته التي لم تثبت ليظهر معجزة من معجزات الرسول (ص) فهو براء من هذه النظرية ، التي شغلت العلماء وقتاً ليس باليسير والتي لم تثبت امام التجربة والعلم والتمحيص ولذلك لم يؤخذ بها فنظرية مفترسات الجراثيم للدكتور Dr Herelle لا كما ورد اسمه في الرسالة (Derale) نظرية شاعت ثم تنوسيت لانهـا كما قلنا لم تثبت للتجربة ولم تصلح للعمل بها فنحن نذكر انه في سنة ١٩٢٩ عندما عقد اول اجتماع عالمي للجراثيم في باريس وكنا احد اعضائه هاجم الدكتور الاستاذ Borelet زميله Dr Herelle مهـاجمة عنيفة بصدد هذه النظرية كما هاجمه الكثير من العلماء الجرمان والانكلواميركانيين ونذكر ايضاً اننا عندما كنا في المصلحة الطبية السودانية في سنة ١٩٢٧ في الخرطوم استعملنا الباكتريوفاج – أي مفترس الميكروب – لمعالجة الزحار الباسيلي Bacillary Dysentery وهو من تحضير Dr Herelle

نفسه فلم يأتنا بنتيجة فعفناه ورجعنا الى العلاجات التي اثبتت التجارب صحتها الا وهي الامصال المختلفة .

وهنا نحب ان نورد ما قاله الاستاذ العالم Dujardin Beaurmetz في حديثه عن الذباب وهو يحذرنا منه في كتابته عن مرض الكوليرا « ان كل وعاء تسقط فيه ذبابة يجب ان يطرح ما فيه حالا » فهل بعد هذا يتردد احدنا في الاعتقاد بان هذا الحديث من الاحاديث المدسوسة ؟

اما اسلوب هذه الرسالة عموماً فهو « اسلوب سرد الحقائق » وهو الاسلوب العلمي ولكن فيه ضعفاً شديدا في التركيب اللغوي لغلبة الرطانة (التركية) واللهجة العامية على المؤلف . ولا شك في ان ضعف الاسلوب في هذا الكتيب عينه يحول دون ابراز الحقائق العلمية في صورتها الحقيقية ثم هو لا يغري القارىء باستمرار المطالعة وخصوصاً اذا علمنا ان هذا الكتاب لم يوضع للاطباء والعلماء واهل الاختصاص كل على حدته وانما وضع لهم كلهم ولتثقيف الناس وتعريفهم شر الذباب وطرق الوقاية منه ولهذا كان الكتاب احوج الى اسلوب جذاب متين .

الدكتور محمد خير النويري

من مؤسسة باستور بباريز ومؤسسة كوخ ببرلين ومعهد الاقاليم الحارة بهامبورغ

همس الجفون

مجموعة شعرية للاستاذ ميخائيل نعيمة ، نشرته مكتبة صادر – بيروت

اخي الاستاذ نعيمه

أتذكر اذ فاجأتك على شاطىء نهر ، سربله الجليد فركد وتعرت حوله الاشجار من ربيع الحياة وانت كالحائر بين يديه ، فالتفت الي وقلت لي مشيرا الى النهر :

« انه كما ترى قد هرم فخفت صوته وخار عزمه فوقف يستجم .

لقد وجمت حياله ابكي واذكر ضحكاتي على ضفافه ايان كنت ارده وهو يزق الطير لحنه ويسبغ على الشجر وشيه .

لقد مات هذا النهر أفما ترى هذه الاكفان البيض كيف اشتملت عليه وافنان الشجر كيف تعرت على ضفتيه ؟؟

لا ، لا ، انه لم يمت ولكنه يستجم وسيعود ريعه ويحط عنه عبء الجليد الجاثم على صدره فينطلق حرا الى البحر مصدره الاول حاملاً اليه اسرار الليل .

ستعود يا نهري الحبيب طلق المحيا مشرق القسمات يداعبك النسيم الرطب وتخفق في قلبك نجوم السماء

سيتهالك البدر امامك وتبسم الشمس للزهر حولك وتهتف العنادل بالصبح على ضفافك

ان لك مثالا بين جنبي ايها النهر : قلباً يضحك للربيع وتموج فيه كما تموج فيك ذكريات الامس وآمال الغد حتى اذا اثقله عبء الحياة جمد جمودك وركد ركودك

على انك جمدت لتتحرك وركدت لتركض وقد جمد هو ليغيض وركد ليتلاشى

أواه يا نهري المحبوب أتشيب وتهرم ثم تعود الى شبابك ويشيب قلبي ويهرم ثم يتلاشى واكون بينك وبينه لغزا مبهما آخر الامر ؟؟ (١)

والتفت الي تستفهمني مبلغ شعورك مني فقلت لك حبذا تدوين هذه الفكرة شعرا منثورا في قصصك او حكمة في « مراحلك »

أتذكر ذلك يا استاذ ونحن في عالم يقظة لا حلم ؟؟

**

أوتذكر يا ميخائيل اذ التقيتك وانت تهبط صنين الى « شخروبك » مهبط الحكمة وانت صامت مفكر فقلت لك ماذا يا استاذ ؟؟ فقلت لي فكرة عرضت فاصغيت اليك والشجر الشامخ حولك يهتف باوراقه ايه . . . ورحت تنثر :

«ساق يدير كأسه ، وملحن يحرك وتره ، ومترف يغتبط في قصره ، وفاقد يبكي الفه ، ومثر يعبد كنوزه ، وكاهن يبشر وينذر ، وزهرة تتململ بين الاشواك .

فيا ساقي الجلاس ! انا لست منهم وان ابيت الا ملء كأسي فأترعها من عصارة قلبي

ويا مرسل الالحان لا تحسب اطراقي هياماً بلحنك ولكني أصغي الى نفسي يوقع الفكر على اوتارها لحن الوجود

ويا ساكن القصر اغتبط في قصرك المحفوف بالنعيم ولا تحسب اعراضي عنك حسدا لك ولكن لي قصرا بنته الافكار وزخرفته الاحلام

ويا جالساً بين القبور الموحشه يبكي الفه ، غدا سوف تنساه ولكن لي كل يوم فقيدا من رجائي ادفنه فأبلى وذكره يتجدد بتجدد الايام

ويا جامع الكنوز لايرى في الحياة الا لون الفضة والعسجد، لا تحسب تشوفي اليك غبطة لك فان لي من حياتي لوناً لا تراه عينك ولا يخفق له قلبك

ويا حامل الانجيل ينذر بالعقاب يوم الحساب ، لا تحسب اعراضي عنك هزءا بك فان لي من ضميري جنة تغرق وجحيما يحرق فدعني وما يشتمل عليه قلبي من عبر »

« ويا زهرة ضاعت بين الاشواك فدل عليها العبير ، هل تدرك الاشواك ان الذي ضمخ الافق هو عطرك الضائع » ؟؟

كلا ولو ادركت ذلك لكانت مثلك زاهية اللون ذكية العرف «(٢)

والتفت الي اذ ذاك تقول : كيف ترى ؟؟ فقلت لك حبذا هو شعرا بالغ الاثر على ان لا تشوهه بالوزن والقافية فما اشعرك في « العاقر » واحكمك في « وجوهك الثلاثة »

أتذكر ذلك ونحن في عالم حقيقة

---

(١) خلاصة قصيدة « النهر المتجمد »

(٢) خلاصة قصيدته « لو تدرك الاشواك »

لا خيال ؟؟

أو تذكر بعد ذلك وانت على شاطىء نيويورك لا تمد بصرك الى رياضه وغياضه ولكنك تتطلع الى مرقد الجماجم وتهمهم بشيء لا يفهمه منك الا الموج الصاخب والشجر الباسق ، واذ ابصرتني شاعت في وجهك ابتسامة السخر من الحياة فقلت لك مه يا استاذ افتشاءم وجمال الحياة ملء سمعك وبصرك؟؟ فقلت لي اسمع ورحت تخاطب الجماجم في الارماس :

« حدثيني ياجماجم عن القلوب، وهي كل الحياة، كيف كانت بالامس تنبض حبًا وبغضًا ، وتغيض ايمانًا وشكًا ، وكيف حالت اليوم ترابًا ألمسه فلا احس فيه حرارة الحب ، واصغي اليه فلا اسمع شكوى العتاب

فهل تحولت الاشواق الى بروق والدموع الى سحب والانين الى رعود والاماني الى ضباب ؟؟

ام هل التراب عاد ترابا والسراب آل سرابا !!

حدثيني ايتها الجماجم !! عن جمال الخدود كيف كانت مجالي للاعين ومباهج للانفس ، تذهب بألباب النساك ، فتقرع حولها الصدور ويحرق فوقها البخور ، وكيف صارت جيفة ينهشها الدود وتقتتل عليها الحشرات؟

حدثيني يا جماجم الاسلاف عن نفخة جعلت آدم حيًا وكان جمادا ، كيف ارتنا بصيصًا من النور فزدنا عمى ، وأنهلتنا قطرة من العلم فزدنا جهالة ؟

واين استقرت تلك النفخة بعد ان تلاشت الجسوم؟ ألى صدر الخالق عادت جموعها ، ام عادت الى مصدرها الاول اذ كانت هواء فعادت هواء ؟ » (١)

والتفت الي يا صاح تستزيدني فكرا فقلت حسبك !! انما وحي هبط اليك من العقل فلا تقيد به الروح . فلم يكن جمال الفن ليدرك بالعقل ولكنه يلمس بالروح فعد الى مراحلك وقصصك فما اشعرك في « العاقر » واحكمك في « الوجوه الثلاثة »

أتذكر اذ ذاك ونحن بين اليقظة والحلم من عالم الشعر ؟

***

أوتذكر آخر لحظة جمعتني بك على ضفاف البحيرة بحيرة «ليزبدبارك» وانت تحدق الى افق حافل بالفتية والفتيات وقد اسر نظرك وجه فاتن فوقفت عليه تمن وتهمس :

« انا السر الذي كمن فيك اذ قال لك الله كوني بشرا من تراب ، والشبح الذي خفق في قلبك قبل انبثاق الشمس ، والدمع الذي صقل عينك قبل ان ترى الآلام ، والمهد الذي ضمك قبل ان يفرشك القدر زهر السرور وحسك الغم »

« انا في ليلك القمر وفي صفوك الكدر وفي نواحك الغناء وفي زنادك الشرر ، انا شكواك ونجواك وبلواك وسلواك

انا قبس فكرك وذبول جفنيك وعذوبة احلامك وندى الطهر المتقطر في اكمامك قبل ان تتفتق عن زهر الصبا الغض

وانت معنى اللفظ الذي كنته والسر الذي شملته والامل الذي حلمته والكأس الذي تحطم على شفتي منذ تذوقت الحياة ، فهات يدا وهاك يدا ثم قولي لهؤلاء الناس : كنا معًا منذ الازل وسنبقى معًا الى الابد » (٢)

او تذكر تلك اللحظة وانت لم تشعر بي حتى اديت رسالتك واذ رأيتني زال وجومك وعادت اليك تلك الابتسامه الحلوة المرة ثم قلت لي ألما تزل تتأثرني هناك وهنا ؟ فقلت اجل أولست واياك من عبيد هذه الاوهام ؟ فقهقهت وقلت كيف ترى ؟

فاجبتك انها روائع على ان تكون حرة مثلك لا يحبسك صنين تحت جليده ولا نياغرابين شلالاتها المتحدرة من قلب السماء .

أفتذكر كل ذلك يا ميكائيل وهل نحن اذ ذاك في عالم يقظة ام عالم خيال . . .؟

ما ادري يا اخي غير انني افهم من الشعر خلاف ما يفهمه الناس .

انهم يفهمون منه : فكرة يلبسها لفظ موزون مقفى، وليكن صاحب الفكرة بعد ذلك كما يجب فانه الشاعر .

ألا تفهم معي يا استاذ ان في الشعر معنى غير الفكرة واللفظ والموسيقى ؟

ألا تعود معي الى سفح صنين او حدائق نيويرك فتعيد على مسمعي قولك :

تناثري تناثري ... يا بهجة النظر
يا مرقص الشمس ويا ... ارجوحة القمر
يا ارغن الليل ويا ... قيثارة السمر
يا رمز فكر حائر ... ورسم روح ثائر
وذكر مجد غابر ... قد عافك الشجر
تناثري تناثري . . .

ثم تغضي بعد ذلك عن شرحي ما أجملت لك في فهم الشعر وانه اسمى من حده بالفكرة واللفظ والقافية والوزن ؟

اخي ميخائيل

لقد جئت بك في « العاقر » شاعرا وفي « الوجوه الثلاثة » حكيما أفاردت ان تزيل جنوني بهمس الجفون اذ تقول :

ارسلت طرفي ... بين النجوم
وقلت علي ... انسى همومي
فطاف طرفي ... بين النجوم
ولم يشاهد ... سوى همومي

واذ تقول :

لما رأيت الناس قد اضرموا ... للجهل نيرانًا لكي يحرقوه
وشيدوا عرشًا رفيع الذرى ... وهيكلا للعلم كي يعبدوه
وضعت ايماني على راحتي ... وقلت ها علمي الا اكرموه
وقدت نحو النار قلبي الغبي ... وقلت ها جهلى الا فاتلفوه
فاجلسوا عقلي على عرشهم ... وحرقوا الايمان لم يرحموه

أفقائل هذا الشعر هو عين قائل « تناثري تناثري » يا ميخائيل ؟

انا لا اعتقد ذلك ، فان في كتابك هذا قصائد تكاد تطغى على الجيد فيه ، اشك انها من قلبك ولعل لسانك لم يعربها وقلمك لم يكتبها ولكنها من وضع هؤلاء الكتبيين الذين يريدون ان يوهموا الناس ان الشعر مداد مختلف الالوان على ورق ابيض صقيل ويغفلون عن انه لون لا تراه الا الروح ولا يشعر به الا القلب

فعد الى كتابك وحدق فيه مليًا ثم عد الى قلبك فاستنشده قطعة اخرى الى جنب قولك :

ان رأيت البحر يطغي ... الموج فيه ويثور
او سمعت البحر يبكي ... عند اقدام الصخور

---

(١) خلاصة قصيدته « بين الجماجم »

(٢) خلاصة قصيدته « الى M. E. D. »

ترقي الموج الى ان يحبس الموج هديره
وتناجي البحر حتى يسمع البحر زفيره
راجعاً منك اليه
هل من الامواج جئت ؟

واسمح لي ان اهمس في اذنك بعد هذه الذكريات : ان الدود في الشعر يفعل فعله في الاجسام فما بالك تتعهده في كل قصيدة

وان الشعر الفلسفي ليس قاصرا على فكرة الشؤم حتى تلبسها روح كروح المعري .

والشعر العرفاني ليس قاصرا على فكرة القول بوحدة الوجود حتى تتغلغل فيها روح القائل :

ومن عجب اني احن اليهم ... واسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ... ويشتاقهم قلبي وهم بين اضلعي

الحوماني

المثل الاعلى في الحضارة العربية

للدكتور محمد يحيى الهاشمي – ٥٠ صفحة – حلب

رسالة صغيرة الحجم ، خطيرة الموضوع ، ألقيت مختصرة في دار الارقم بحلب ثم نشرت مع بعض التعديلات والايضاحات . وربما كان هذا العنوان «المثل الاعلى في الحضارة العربية» لا ينطبق تماماً على نواحي البحث ومجاليه ، فالبحث يتناول المثل الاعلى في بعض نواحي الفكر عند العرب كالادب والفن والفلسفة والدين والتصوف والعلوم . وهذا هو الجانب الفكري من الحضارة العربية .

ويتنوع المثل الاعلى ، او المثل العليا على الاصح ، عند المؤلف ، فهو في الدين التسامح ، وفي الفلسفة البحث عن الحقيقة ، وفي الادب البطولة الحكيمة وفي بعض الفنون ، كالغناء مثلاً، الغيبوبة عن الكون والاتصال الخفي بعالم الملكوت العلوي ، الى ما هنالك من مثل عليا تختلف باختلاف الموضوعات . ويختم المؤلف رسالته بفصل عن حضارة العرب كمثل اعلى وكلمة عن وضعنا الحاضر .

ومن ميزات هذه الدراسة البحث العلمي المدعم بالادلة ، وقد قال الناشر عن الدكتور الهاشمي بأن «كل ما يقوله يدعمه بالبراهين فيدلك على مصادره لكي لا تتبعه على العمياء بل ينير لك الطريق لتسير حرا طليقا» ولكن هذا ليس شيئاً جديدا ، فالاستناد الى البراهين اقل مـا يتطلبه البحث العلمي الذي ينبغي ان يتصف به كل باحث ، وخاصة اولئك الذين يتصدون للبحث عن حضارات تمت الى امتهم بسبب . ولكننا لا نؤاخذ الناشر فهو نفسه يعترف عندما يقول : « انا لست من العلماء ولا من الادباء ولكني بكل جوارحي محب للعلم والادب . . . »

وحرص المؤلف على ذكر المصادر ، مراعياً للمنهج العلمي في البحث ، بلغ مدى بعيدا من الدقة والتقيد ، فهو يصف حالنا بأننا اشبه « بحال اهل الكهف الذين ناموا سنين عديدة » وهذا تشبيه تقليدي سائر يعرفه أي قارىء ويجري على لسان كل متكلم عندما يريد ان يغلو في تشبيه خمود الشيء وخموله ، ولكن الدكتور الهاشمي عندما يلقي هذا التشبيه يحيل القارىء بعد ذلك الى الهامش الذي يقول له : راجع سورة الكهف من القرآن (الذي) نسخ منها توفيق الحكيم روايته المشهورة . . .!

ولو كان هذا التكلف في الاستشهاد اتبعه المؤلف في مواضع اخرى اشد من هذا الموضع حاجة اليه وضرورة ، ربما كان مقبولاً منه ، ولكنه بينا يذكر هنا المصدر في كلام عارض ليس من صميم البحث ثم يعرف سورة الكهف برواية توفيق الحكيم . . . اذا به يفوته ان يدل على مصادر بعض النقاط الهامة عندما يقول : « في السنين الاولى من العهد العباسي انشأت الحكومة معملًا للورق في سمرقند ، وربما كان يدار هذا المعمل من عمال صينيين » . فالمصدر مجهول والتحديد مفقود : في السنين الاولى ، وهي سنين ينطوي تحتها عدد لا يحصى ، ثم كلمة « ربما » بدون ان يستند الى اساس علمي يؤيد هذا الترجيح . . .

ومن امثلة الكلام الملقى بدون اعتماد على مصدر علمي قوله ص ٤١ : يذكر القدماء بفخر زائد الآلات الكيميائية والادوات الزراعية وعدد الري المستعملة آنئذ ففي خزائن اوربا مخطوطات عربية عديدة تبحث عن السموم والعقاقير وعن صنع الفولاذ والخزف والزجاج والمنسوجات على اختلافها وكذلك باقي الصناعات » .

ولا يكاد القارىء يصل الى نهاية هذه الجملة حتى يتساءل : من هم هؤلاء الكتاب القدماء ؟ ومن أي عصر هم على الاقل ؟ ومـا هي هذه الآلات الكيميائية التي يذكرونها بفخر زائد ؟ ومـا هي المخطوطات العربية التي تبحث عن السموم والعقاقير . . . ومن مؤلفوها ؟ بل في أي الخزائن من خزائن اوروبا توجد ؟ هذه بعض الاسئلة التي تفيض بها نفس القارىء عندما يقرأ هذه الفقرة ، ويظن ان الرقم الذي يختم المؤلف به هذه الفقرة ، يهديه الى جواب عن بعض تلك الاسئلة ، فاذا ما انتقل مع الرقم الى الحاشية وجد : ان المؤلف يقوم الآن بدراسة خزف سامراء وستمتاز دراسته بكذا . . . من الابتكار والتحليل والمقارنة . . .!

ومن مظاهر النقص البادية في هذه الرسالة بعض الاضطراب في بحث بعض فصولها ، اذ يبدأ المؤلف في ميدان وينتهي في ميدان آخر ، والمشكلة لم تحل ، ان لم تزد تعقدا . . . فعندما يتحدث عن المثل الاعلى في الفلسفة يرى اولا انه البحث عن الحقيقة ، هذا الهدف الذي يتخذه كل من يدرس الفلسفة ، ثم ينتهي الى ان دراستنا للفلسفة لم تكمل بعد وقد بحثها المستشرقون اكثر منا ويبرهن على هذا الكلام . . . ويترك القارىء وعلى وجهه حيرة وفي نفسه علامات استفهام . ؟ لولا ان يتذكر هذا القارىء ان المؤلف بدأ رسالته بقوله : « اني لا اطمع في حل مشاكلنا بل باثارتها » وختمها بقوله : لم اتمكن من ان اوفي الموضوع حقه لتشعبه وترامي اطرافه واني ادرى الناس بمواضع الضعف فيه » . وعلى الرغم مما في هذا الكلام من التواضع المرغوب فان نصيب الحقيقة فيه وافر .

ومما يحق للمؤلف ان يختلف مع القارىء في آراء يبديها في صلب الموضوع ، وان يتجه الوجهة التي يريدها او التي اوصلته اليها دراسته في فهم المثل العليا في مقومات الحضارة ، الا ان القارىء لا يجد بدا من الاشارة الى بعض الاخطاء التي تعترضه وليس اسهل من تصحيحها بقليل من العناية والانتباه : يذكر المؤلف « ابن العربي » ويقصد ابن عربي – بدون أل التعريف – صاحب الفتوحات المكية ، وفرق بين ابن العربي أي ابو بكر المحدث المشهور ، وبين ابن عربي المتصوف الكبير .

اما الاخطاء النحوية فأوسع من ان يحاط بها واكثر من ان تحصى وقد كنا نود ان يتنزه عنها كتاب كهذا يدعو الى العروبة بأدبها وعلمها وفنونها ولغتها ، ولا يحتاج الدكتور الهاشمي ، وهو استاذ في تجهيز حلب اكثر من ان يكلف احد تلاميذه فيقيم له جمل الكتاب ويخرجها عربية ناصعة ، بعيدة عن اللحن والخطأ . وما اكثر ما يلتوي التركيب في « الاسماء الموصولة » في الجملة فيؤنث في موضع التذكير ، او يذكر حيث يجب التأنيث . مثل قوله في ص٣ راجع سورة الكهف من القرآن (الذي) نسج منها توفيق الحكيم روايته المشهورة . او قوله في ص١٠ : « ذلك النبي (التي) تظهر حياته كما يقول البحاثة (المستشرقين) على ضوء التاريخ . . .

وما اظن انني بحاجة بعد ذلك الى الوقوف امام بقية هذه الاخطاء التافهة ، او الى اثبات المواضع التي رفع فيها اسم ان ص٦ او اسم لكن ص٤ او رفع المفعول به كما في ص٤٢ ، الى آخر ما في الكتاب من أخطاء لغوية ونحوية يدركها القارىء ولا يصححها جدول التصويبات في آخر الكتاب .

وعلى الرغم من كل ما ذكرت لا بد لكل قارىء من ان يعجب اشد الاعجاب ببعض الفصول ، وخاصة ذلك الفصل الممتع — العلوم الايجابية — الذي يجول فيه الدكتور الهاشمي جولة موفقة لبقة . وهذا الاعجاب يدعونا الى ان نرجو المؤلف ان يزيدنا من هذه الموضوعات التي يختص فيها كما عودنا في بعض ما كتب ويكتب في « الاديب » او « الحديث » .

بهي

★

الالهات الست

للدكتور داهش — ٣٢ صفحة — مزينة بالرسوم بريشة الاستاذ قيصر الجميل مطابع صادر — ريحاني بيروت

الالهات الست ثالث كتاب ينشره الدكتور داهش بعد كتابيه « ضجعة الموت » و« الكلمات » .

ولعل خير ما نعرف به هذا الكتاب الى القراء ان ننقل اليهم المقدمة التي قدمه بها الاستاذ حليم دموس قال :

ان جميع كتابات الدكتور داهش تجدها مشبعة بالآلام النفسية مفعمة بروح الاسى ، فياضة بالعبرات المترعة ، جياشة بالكآبة الصارخة زخارة بالاتراح المضنية . وهذا ما يدعو الى الغرابة والتساؤل اذ انه ما يزال في مقتبل العمر وعنفوان الصبا ولكنها في الوقت نفسه عميقة جبارة ، عنيفة بتارة ، فانك تتلمس بين السطور روحه المتمردة الثائرة على هذا الكون وما يحويه ، وعدم اطمئنانه لاي مخلوق فوق هذه الارض كما انه توجد له آراء غريبة في هذه الحياة ، يجدر ان يطلع عليها القراء » .

وقد اهدى المؤلف كتابه الانيق هذا ، « الى الحقيقة المنبوذة التائهة في صحراء هذا العالم التاعس الفاسد ! »

الى القراء

★

— لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها من شهر كانون الثاني (يناير) .

— تدفع قيمة الاشتراك مقدماً .

— قيمة الاشتراك :

في سوريا ولبنان : ٩ ليرات لبنانية . ولا تقبل الاشتراكات لهذه السنة الا من الاماكن التي لا تباع فيها المجلة .

في الخارج :

جنيه مصري واحد . ولصاحب الاشتراك في الخارج الحق في الحصول على منشورات الاديب التي تصدر خلال السنة .

— الادارة غير مسؤولة عن اعداد المشتركين التي تفقد في البريد .

— احتفظت الادارة ببعض اجزاء السنة الاولى (ما عدا الجزأين الاول والثاني) فمن شاء من هذه الاجزاء فليطلبها من الادارة وثمن الجزء ليرة واحدة

— الادارة مستعدة لشراء اي جزء من اجزاء السنة الثانية بـ ٥٠ غرشاً لبنانياً ، اذا كانت بحالة جيدة ، وكذلك تدفع ليرتين لبنانيتين ثمن كل من الجزء الاول والثاني من السنة الاولى . والثاني والثالث من السنة الثانية .

— المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .

— توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨ بيروت — لبنان

الادارة

مجمل الاحداث السياسية والحربية في شهر

برلين ٢٥ ايلول – جلا الالمان عن مدينتي سمولنسك وروسلافل.

بيروت – كلف فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية حضرة النائب رياض بك الصلح بتأليف الوزارة اللبنانية ، وقد ألفها على الشكل التالي : رياض بك الصلح للرئاسة والمالية ، الاستاذ حبيب ابو شهلا لنيابة الرئاسة والعدلية والتربية الوطنية ، الاستاذ سليم تقلا للخارجية والاشغال العامة ، الامير مجيد ارسلان للزراعة والصحة والدفاع ، الاستاذ كميل شمعون للداخلية والبرق والبريد ، الاستاذ عادل عسيران للتموين والتجارة والصناعة .

لندن ٢٨ – استولى الجيش الثامن على فوجيا في جنوب شرقي ايطاليا بعد ان قاتل الالمان قتالاً شديدا وانزل بهم خسائر فادحة .

لندن ١ تشرين الاول – سقطت نابولي في ايدي الحلفاء بعد ان اخلاها الالمان ، وكان جل القوات التي دخلتها انكليزية . ونابولي اكبر مدينة في جنوب ايطاليا وأهم ميناء في البحر المتوسط ومن اجمل بلاد العالم واعرقها في التاريخ وقد تركها الالمان وقد خيم عليها الخراب والدمار من اعمال التدمير التي ارتكبوها فيها . لندن ٣ – استولى الجيش الخامس على فريجنتو ، ودخلت قوات اخرى بريطانية بنفنتو على بعد ٣٥ ميلاً شمال شرقي نابولي .

سيدني – استولى جنود الفرقة التاسعة الاسترالية على فينشهافن وتغلبوا على كل مقاومة منظمة ابداها اليابانيون فاصبحت المنطقة كلها الان في ايدي الحلفاء واشنطون ٤ – وصل الى العاصمة الاميركية صاحب السمو الامير فيصل نجل جلالة الملك ابن سعود يرافقه اخوه الامير خالد والشيخ حافظ وهبه مفوض الحكومة العربية السعودية في لندن والشيخ ابراهيم السلمان سكرتير الامير الخاص . وقد حلوا جميعهم ضيوفاً على الحكومة الاميركية .

برلين – جاء في البلاغ الالماني ان قوات الريخ اضطرت الى اخلاء شبه جزيرة تامان . لندن ٥ – اتمت القوات الفرنسية تطهير جزيرة كورسيكا من الالمان بعد قتال استمر ١٤ يوماً . ستوكهولم – ضمت المقاطعات الايطالية الثلاث بولزانو وترانتي وبلينو الى المانيا . الجزائر – احتلت قوات الجيش الخامس مدينة مونت ساركيو . وهي مدينة تقع على عشرة اميال غربي بنفنتو على الطريق الرئيسي المؤدي الى كابو المدينة التي تطل على خط نهر الفولترنو . الجزائر ٦ – احتلت القوات الحليفة في ايطاليا مدينة افيرسا وماداولي وعبرت عناصر من الجيش الخامس نهر فولتورنو .

بيروت ٧ – اجتمع مجلس النواب اللبناني للاستماع الى البيان الوزاري الذي قدمته وزارة دولة رياض بك الصلح ، فتلا رئيس الوزارة البيان ، وقد طالبت الحكومة فيه بتعديل الدستور وجعل اللغة العربية لغة البلاد الرسمية وتعهدت بتنظيم الحكم الوطني وحددت فيه علاقة لبنان بشقيقاته الدول العربية وبدول الحلفاء ، ووضعت مشروعاً انشائياً عاماً يتناول جميع مرافق الدولة ويتفق مع العهد الجديد ، عهد الاستقلال والسيادة الوطنية والعزة القومية . وبعد مناقشات لبعض النواب حول بعض مواد البيان الوزاري جرى الاقتراع على الثقة فنالت الوزارة الثقة بالاجماع .

موسكو ٨ – هاجمت تشكيلات روسية الاستحكامات الالمانية التي تحمي القسم الجنوبي الغربي من شبه جزيرة تامان . وقد احتل الروس فضلاً عن مدينة تامان مرفأ سيمنيوك . ملبورن – جلت القوات اليابانية عن فيلا ، وعن جزء من جزيرة كولومبانغارا .

بغداد – انتهت الانتخابات البرلمانية في العراق . وقد استقال من الوزارة صالح بك جبر وجلال بك بابان ونصرت بك الفارسي . وقد عين عبدالله بك القصاب وزيرا للداخلية وتولى عبد الاله حافظ وزارة المعارف وتحسين بك العسكري وزير المواصلات وزارة الخارجية بالوكالة .

بغداد ١٠ – احتفل بافتتاح البرلمان العراقي ، وقد اقتصر خطاب العرش على بحث الدستور العراقي الجديد المنبثق عن قانون الانتخابات الجديد ، وجرى انتخاب رئيس المجلس ففاز بالرئاسة حمدي بك الباجه جي الرئيس السابق . القاهرة ١١ – بدأت المشاورات الثالثة للوحدة العربية في قصر انطونيادس في الاسكندرية بين رفعة مصطفى النحاس باشا وبين الشيخ يوسف ياسين سكرتير جلالة الملك عبد العزيز آل سعود والقائم بأعمال وزارة الخارجية .

لندن ١٢ – اعلن المستر تشرشل في مجلس العموم ان البرتغال قررت منح بريطانيا بعض التسهيلات في جزر « أسورس » لتأمين الملاحة البريطانية في شمال الاطلانطيك وعقدت معها اتفاقاً بهذا الصدد وستمنح الحكومة البريطانية البرتغال لقاء هذه التسهيلات الاعتدة والاسلحة والمؤن التي نص عليها الاتفاق دمشق ١٢ – جرت الانتخابات في دمشق لملء المقعد النيابي الشاغر باعتلاء فخامة شكري القوتلي رئاسة الجمهورية . وقد وقع « بالوتاج » ، ثم فاز في دورة « البالوتاج » السيد فخري البارودي . دمشق ١٣ – استقبل معالي جميل مردم بك وزير الخارجية السورية حضرة الاستاذ احمد رمزي القنصل العام لمصر في سورية ولبنان الذي سلمه رسالة رفعة النحاس باشا رئيس الوزارة ووزير الخارجية المصرية وتنص هذه الرسالة على انشاء مفوضية في دمشق وتعيين قائم باعمالها . بيروت – اعترفت حكومة العراق باستقلال لبنان . وقد ابلغ السيد تحسين قدري قنصل العراق العام هذا الاعتراف الرسمي الى فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية . لندن – اذاع المرشال بادوليو من راديو باري بياناً الى الشعب الايطالي يعلن فيه الحرب على المانيا .

لندن ١٤ – دخلت معركة ايطاليا في مرحلتها الثانية ، ذلك ان قوات الجيش الاميركي الخامس المدرعة ومشاته اجتازت نهر فولتورنو ، الذي يشكل آخر خط دفاعي طبيعي في الطريق الى روما . لندن – اطبقت القوات الروسية على غوميل ، وان القتال يدور في شوارع المدينة . بيروت – قام حضرة الاستاذ احمد رمزي قنصل مصر العام في لبنان وسوريا بزيارة رسمية لمعالي سليم تقلا وزير الخارجية اللبنانية قدم فيها كتاباً من رفعة النحاس باشا يبلغه فيها انشاء مفوضية ملكية مصرية في بيروت . موسكو ١٥ – احتلت القوات الروسية جهياً مدينة زابوروج فقضت بذلك على آخر رقبة جسر كان يملكها الالمان على خط الدنابر الاسير واستردت بسقوطها سدود الدنابر الكبرى وكان الروس انفسهم قد دمروها في ٢٨ آب سنة ١٩٤١ قبل انسحابهم نحو الشرق لمنع الالمان من استخدامها . لندن ١٨ – احتل الجيش الخامس مدينه « كانشالو » على الفولترنو . بيروت ١٩ – عقد المجلس النيابي اللبناني جلسته الاولى للدورة العادية وجدد انتخاب صبري بك حماده لرئاسة المجلس . دمشق – جدد انتخاب فارس بك الخوري بالاجماع رئيساً للمجلس النيابي السوري . موسكو ٢٤ – بعد معارك عنيفة في الشوارع دامت ١١ يوماً احتلت القوات السوفياتية مدينة مليتوبول بكاملها .